الإسكندرية ومدن دلتا النيل بعيون أوروبية نهاية العصر المملوكي:

دراسة وصفية مقارنة ليوميات مارتن بومجارتن

دكتور إبراهيم سعيد فهيم محمود

أستاذ تاريخ وحضارة العصور الوسطى المساعد

قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية

كلية الآداب جامعة الإسكندرية

مقدمة:

في العقد الأول من القرن السادس عشر الميلادي وتحديدا في التاسع من سبتمبر سنة ١٥٠٧م، حطت بميناء الإسكندرية سفينة بندقية حملت على متنها من بين ما حملته نبيلا أوروبيا كانت مصر محطة له في طريقه إلى بلاد الشام. ولقد ترك لنا هذا المسافر يومياته عن تلك الرحلة التي ضمت صفحاتها مشاهدات شاهد عيان لبلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

والمقال الذي نتناوله بالعرض في هذا المقام، يهدف التعريف بهذا الرحالة الأوروبي، ودافعه من وراء رحلته إلى الشرق، والمحطات التي حل بها في طريقه إلى مصر. واستخدام يومياته لرسم صورة نابضة بالحياة للإسكندرية ومدن دلتا النيل مطلع القرن السادس عشر الميلادي، من خلال ما سجله بشأنها من معلومات تاريخية، وطبوغرافية، وسياسية، ودفاعية، واقتصادية، واجتماعية، وغيرها. مع مقارنتها لاستكمال تلك الصورة بمثيلاتها من مصادر الزوار الأوروبيين المعاصرين له من اليهود والمسيحيين، من الرُحال والسفراء كميشولم بن ميناحيم Meshullem Ben Menahem، وعوباديا جاريه دا بيرتينورو Obadiah Jaré da Bertinoro، وأرنولد فون هارف Arnold von Harff، وفرانسيسكو سيريانو Francesco Suriano، وجان ثينو Jean Thenaud، ودومينيكو ترافيزان Domenico Trevisan، وغيرهم. وكذا بعض المصادر العربية المتزامنة والتي لا تتعد ابن إياس، والحسن بن الوزان الزياتي، لإبراز قيمة تلك اليوميات كمصدر للمعلومات عن الإسكندرية ودلتا النيل في ظل ندرة المصادر العربية لتلك الفترة الزمنية الفارقة في تاريخها، والتي كانت الظروف تتجهز فيها للتحول من حقبة تاريخية إلى أخرى، ونعني بذلك الانتقال من زمن الحكم المملوكي إلى زمن الاحتلال العثماني.

١- التعريف بيوميات الرحلة:

الرحالة المعني بهذه المقدمة هو النمساوي من أصل ألماني مارتن بومجارتن Martin Baumgartin. وقبل التعريف به يحسن التعريف بيومياته التي حفظت لنا بعض من سيرته، وما جاء من أوصافه ومشاهداته. وبادئ ذي بدء، من الأهمية الإشارة بشأن يوميات رحلته المنشورة، أنه على الرغم من ذيوع نسبتها له، إلا أن الفضل في خروجها للنور بالشكل الذي بين أيدينا يرجع لشخصين آخرين إلى جانبه. وتفسير ذلك مفاده أنه خلال هذه الرحلة الطويلة احتفظ مارتن بومجارتن بدفتر يوميات دون فيه بلغته الألمانية كل المشاهدات المميزة التي لاحظها أو سمعها يوما بيوم، في الوقت الذي دون فيه خادمه جريجوري Gregory بدوره مشاهدات عن يوميات الرحلة باللاتينية بقدر ما استطاع، وبقدر ما سمح له تعليم ذلك العصر.

أما الشخص الثالث الذي أدى دورًا أساسيًا في ظهور اليوميات بالكيفية التي وصلتنا بها، هو كريستوف دانوفر (Christophorus Donaverus) Christoph Danauer ناشر الرحلة. إذ أخبرنا أنه نشرها نزولا على رغبة وتشجيع ورثة كريستوفر فيليب بومجارتن Christopher Philip Baumgarten أحد أبناء مارتن بومجارتن من زيجته الثانية كما سنرى، والذي وافته منيته عن عمر ناهز السبعين عاما في مدينة ويسن [١] Wissen في منزل زوج ابنته في السابع عشر من مايو سنة ١٥٩٣م، قبل نشر يوميات تلك الرحلة بنحو عام. وسجل ناشر الرحلة عنه اشتهاره بالتقوى والإحسان، وانجابه لست بنات تزوجن جميعا من أفراد أسر نبيلة. وأضاف إن إحداهن فقدت مؤخرا (يعني زمن نشر الرحلة) زوجها مورنافيوس أوف تيرول Morenavius of Tyrol.

وأيا كان الأمر، وامتثالا لتلك الرغبة، قام كريستوف دانوفر بجمع وترجمة ونظم وتوليف ونشر يوميات الرحلة عن نسختي النبيل مارتن بومجارتن، وخادمه جريجوري، ونشرها لأول مرة باللاتينية سنة ١٥٩٤م. وعن ذلك، أورد كريستوف دانوفر أنه كان يصعب عليه أحيانا قراءة الملاحظات التي دونها مارتن بومجارتن بالألمانية، ولكن ما شكل راحة له لحل تلك الصعوبة هو وجود يوميات خادمه المسجلة باللاتينية. إذ كون من هذين الأصلين نصا ثالثا للرحلة هو ما نشره باللاتينية. كما ترجمه كذلك إلى التيوتونية Teutonick (الألمانية)، لكي ينشره كما قال في وقت لاحق. وعنون كريستوف دانوفر نص الرحلة المنشور باللاتينية "أسفار النبيل الألماني مارتن بومجارتن عبر مصر وبلاد العرب وفلسطين وسوريا في ثلاثة أقسام، مع إعطاء رواية عن الوضع، والطبيعة، والآثار، والأطلال لتلك الدول،

[١] **ويسن:** مدينة في إقليم ألينكيرشن Alenkirchen، في أراضي الراين البلاتيني Rhineland – Palatinate الواقع جنوب غرب ألمانيا. وهي تقع على نهر سييج Sieg، على مبعدة قرابة اثنى عشرة كيلو مترا إلى الشمال الشرقي من ألينكيرشن.

والجزر، والمعابد بها، وعن عاداتهم وطبائعهم، وصعود وارتفاع وأعمال بعض الأمراء الأجانب، وخصائص العديد من الحيوانات، م أشياء أخرى نافعة، وقُدم لها بحياة المؤلف" [٢].

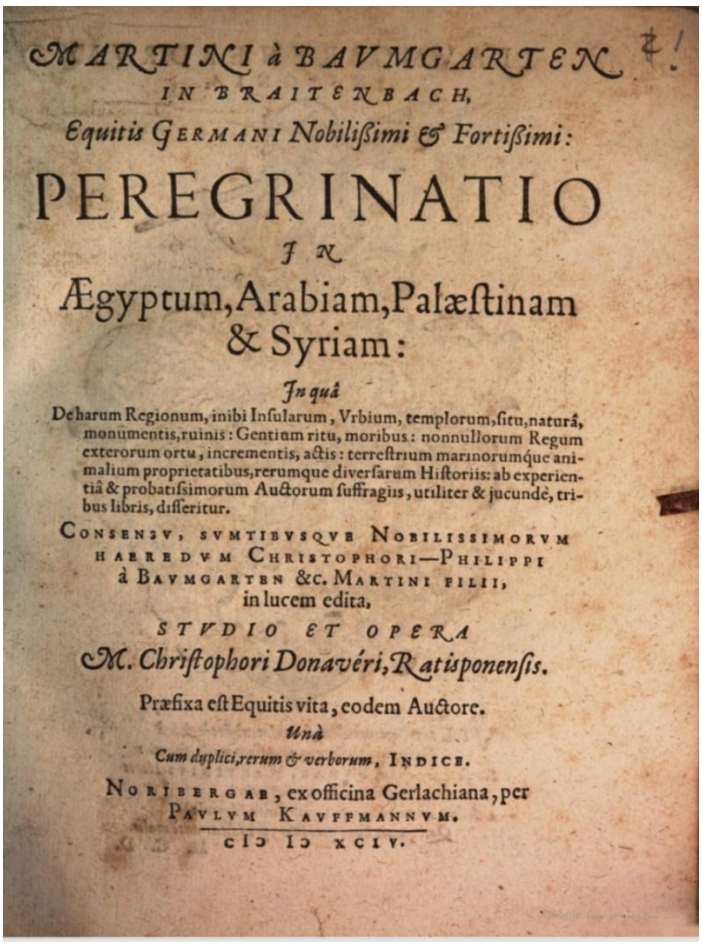

MARTINI à BAVMGARTEN
IN BRAITENBACH,
Equitis GERMANI Nobiliſsimi & Fortißimi:

PEREGRINATIO
IN
Ægyptum, Arabiam, Palæſtinam
& Syriam:

In quâ
De harum Regionum, inibi Inſularum, Vrbium, templorum, ſitu, naturâ, monumentis, ruinis: Gentium ritu, moribus: nonnullorum Regum exterorum ortu, incrementis, actis: terreſtrium marinorumque animalium proprietatibus, rerumque diverſarum Hiſtoriis: ab experientiâ & probatiſsimorum Auctorum ſuffragiis, utiliter & jucundè, tribus libris, diſſeritur.

CONSENSV, SVMTIBVSQVE NOBILISSIMORVM HAEREDVM CHRISTOPHORI—PHILIPPI à BAVMGARTEN &c. MARTINI FILII, in lucem edita,

STVDIO ET OPERA
M. Chriſtophori Donavéri, Ratiſponenſis.

Præfixa eſt Equitis vita, eodem Auctore.
Unà
Cum duplici, rerum & verborum, INDICE.

NORIBERGAE, ex officina Gerlachiana, per PAVLVM KAVFFMANNVM.
CIↃ IↃ XCIV.

صفحة عنوان النسخة اللاتينية ليوميات رحلة مارتن بومجارتن

هذا، ووفق ما جاء في مقدمة " مجموعة الأسفار والرحلات" التي حوت الترجمة الإنجليزية لتلك اليوميات، فقد تُرجمت الطبعة اللاتينية لليوميات إلى الإنجليزية وصُححت بيد جوزيف سكاليجر Joseph Scaliger ونشرت

(2) Martini à Bavmgarten, Equitis Germani Nobilisimi Fortisimi: Peregrinatio in Ægyptum, Arabiam, Palæstinam & Syriam, stvdio et opera M. Christophori Donavéri, Ratisponensis, præfixa estequitis vita, eodem auctore, unà cum duplici, rerum, verborum, indice, Noribergæ, MDXCIV.

لأول مرة بالإنجليزية سنة ١٧٠٤م ضمن تلك المجموعة التي تكونت من أربع مجلدات، وذلك في الصفحات ٤٢٥ – ٥٠٢ من الجزء الأول لها وهي النسخة التي تم الاعتماد عليها في هذا البحث [٣].

وإن وجبت الإشارة مع ذلك، أنه سبق وأمكننا الحصول على نسخة بالإنجليزية بالإسكندرية لهذه اليوميات أيضا، ولكن دون تاريخ نشر، كأحد مصادر رسالتنا للدكتوراة. وذلك قبل تواجدنا في باريس للإعداد لتلك الرسالة في موضوع حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المسيحية المقدسة في الشام ومصر في العصر المملوكي. وهي مطابقة كليًا في محتوياتها لهذه الطبعة الإنجليزية المشار إليها أعلاه، مع اختلاف أرقام صفحاتها. إذ تحمل صفحاتها أرقام ٣٨٢ – ٤٥٢. والنسخة مختومة بخاتم السفارة الألمانية بالقاهرة، وكانت توجد ضمن مجموعة مكتبة أ. د عزيز سوريال عطية بالمكتبة المركزية لجامعة الإسكندرية بمقرها القديم المجاور لكلية الزراعة، قبل نقلها لمقرها الجديد [٤].

٢- سيرة مارتن بومجارتن (١٤٧٣ – ١٥٣٥م):

جاء مولد مارتن بومجارتن في الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٤٧٣م، في مدينة كويستين Kuesstein أو كوبستن Kopsstain، أو كوفستين [٥] Kufstein التابعة لدوقية بافاريا Bavaria، والتي أخذها الإمبراطور ماكسيميليان الأول Maximilian I إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٩٣ – ١٥١٩م) من دوقية بافاريا سنة ١٥٠٤م، ليلحقها في العام التالي (١٥٠٥م) بمقاطعة تيرول Tyrol النمساوية. ولقد أطلق عليه والده هذا الاسم تيمنا باسم أسقف تحل ذكراه السنوية في اليوم الذي وُلد فيه. وكان لأبيه جون John صاحب السلطة العظيمة، والثروة الكبيرة، اثنا عشرة ابناً من زوجته إليزابيث سواتيرين Elizabeth Soiterine، وجاء ترتيب مارتن الثالث بينهم. ولأصله النبيل حصل مارتن على تربية وتعليم يتفقان مع مولده. وما أن مر بمرحلة الطفولة وترك المدارس، انخرط في النظام العسكري، وأمور الحرب، وتميز فيهما.

---

(3) Martin Baumgartin, M., The Travels of Martin Baumgatin a Noble Man of Germany through Egypt, Arabia, Palestine, and Syria in Three Books, to which is prefixed the Life of the Author, translated, and corrected from the Latin to English by. Joseph Scaliger, in. a Collection of Voyages and Travels, edited by Awnsham and John Churchill, 4 volumes, London, 1704, vol I, pp. III, 425 – 502.

(4) Baumgartin, M., The Travels of Martin Baumgatin a Noble Man of Germany through Egypt, Arabia, Palestine and Syria in Three Books, N. D.

(٥) **كوفستين**: كويستين أو كوفستين مدينة في غرب النمسا الآن، وهي تقع على طول نهر إن Inn أو نهر الأنوس Aenus باللاتينية، في مقاطعة تيرول، بالقرب من الحدود البافارية الألمانية.

وفي السابع من سبتمبر سنة ١٤٩٩م، وعندما بلغ مارتن سن السادسة والعشرين، تزوج بينيجنا Benigna ابنة الفارس كريستوفر شيلرس Christopher Schellers، ذات الأصل النبيل والثروة. وذلك بمنزل ثري يسمى بوركبوسيوم Burckbusium، وفي حضور عدد من الأقارب وعلية القوم من الفرسان، والمحامين، ومستشار دوق بافاريا. ونتج عن هذه الزيجة ثلاثة أبناء وهم: ولدا كان يدعى جون John، وابنتان هما آنا Anna، ومارجاريت Margaret. ولكنهم توفوا جميعا وهم صغار ولحقت بهم أمهم من فرط حزنها عليهم في السابع عشر من نوفمبر سنة ١٥٠٥م، بعد ست سنوات من الزواج. ونتيجة لحرمانه من أولاده وزوجته، واستغراقه في الحزن، قرر القيام بزيارة لبيت المقدس ودير القديسة كاثرين. ونفذ نذره سريعا في رحلة تكلف فيها الكثير من المال والجهد، واصطحب معه خلالها خادمه جريجوري، وقس يسمى فينسنت Vincent.

وبعد عودته من رحلته إلى الشرق، تزوج مارتن بومجارتن في مدينة كويستين للمرة الثانية من فتاة لم يسبق لها الزواج، هي أبولونيا Apollonia ابنة توماس Thomas كونت ليختينشتين Liechtenstein في التاسع من يناير سنة ١٥١٠م. ومنحته زوجته الثانية ثمانية أولاد هم: فرانسيس Francis، بارثلوميو Bartholomew، فولوسجانجوس Wolusgangus، مارتن فيليب Martin Philip، كريستوفر فيليب Christopher Philip المشار إليه سابقا، جانوس فيليب Janus Philip، دافيد David، بولس ديجيباردوس Paulus Degenbardus. وثلاث بنات هن: كاثرين Katherine، وباربارا Barbara، وإليزابيث Elizabeth [٦].

وبسبب تحايل وافتراءات وحسد بعض الخبثاء له، أرسل مارتن بومجارتن خطابًا إلى مستشارٍ في البلاط الإمبراطوري، وطلب منه فتح هذا الخطاب فقط أمام سيدهم الإمبراطور فرديناند Ferdinand إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٥٢٦ . ١٥٦٤م)، يكشف مارتن بومجارتن في الخطاب أنه رُسم فارسا للمرة الأولى أثناء رحلة حجه سنة ١٥٠٧م، وثانية سنة ١٥٠٨م بواسطة الإمبراطور ماكسيميليان، وأنه ووالده كانا يعملان في تجارة وصياغة المعادن.

وينبئ الخطاب عن بعض تفاصيل الحياة الشخصية لمارتن بومجارتن، ويظهر تعرضه لضائقة مالية، وخلافاً مع بعض المنافسين والمقرضين. الأمر الذي دفعه للتذكير في هذا الخطاب بالكثير من التفاصيل عن دور والده ودوره في دعم الاقتصادين الألماني والنمساوي. إذ يذكر أن والده جلب الكثير من الأرباح لمن أشار له رمزا دي دي إيه .A .DD، بإقراضهم على الدوام احتياجاتهم من المال دون فوائد. وكان ذلك هو الحال نفسه لما فعله هو بدوره في تجارة المعادن كالفضة والنحاس لتحقيق فائدة عظمى للأمراء، وليس لمصلحته كما يتظاهرون الآن.

(6) Martin Baumgartin, Op. Cit., pp. 426 – 8.

وتابع مارتن بومجارتن أن والده ونزولا على طلب الإمبراطور ماكسيميليان دفع للإمبراطور عن شخص أشار إليه بالأحرف إيه دي سي A. D. C مبلغ اثنا وثلاثين ألف فلورين [٧] Florin ذهبي، مما سبب لهم بصفتهم ورثته خسارة عظيمة. وهي الحقيقة التي يجب معرفتها في شواتز [٨] Schwatz وفي أماكن أخرى.

وذكر مارتن بومجارتن أنه على الرغم من عمله بلا كلل في المعادن فوق اثنتي عشرة سنة في لونتز Luentz، ومدة ثلاث عشرة سنة في شواتز، اضطر نتيجة احتيال وقع عليه من آخرين لبيع كل أسهمه. إلا أنه ومنذ حصل على أسهم أخرى من أربع سنوات، لا يزال يعمل على تحسينها، وأنفق ثلاثين ألف فلورين من بضائعه الخاصة في تلك الأماكن. ودرت تلك الأعمال طوال تلك السنوات، أرباحا على خزانة الإمبراطور فرديناند بقيمة أكثر من ثلاثين ألف فلورين سنويا. ويلفت نظر الإمبراطور أنه وكما يعلم، لم يحصل منها على أية أرباح حتى الآن.

وأضاف مارتن أنه منذ ثمان عشرة سنة، فقد في الحروب مع البافاريين، ثمانية آلاف فلورين من بضائعه الخاصة. كذلك ونزولا على رغبة الإمبراطور ماكسيميليان منذ اثنى عشر عاما، ذهب في أسلحته وخيوله وعرباته إلى لوينتز، حيث بقي بها مدة ستة أشهر على نفقته الخاصة. وفي تلك الأثناء، حصل هناك على معادن عمل فيها بجد. بيد أنه وحتى يومه هذا لم يحصل على أي ربح من أعماله الضخمة المتعددة.

وتابع في خطابه أنه ومنذ ثلاثة أعوام تتم مضايقته بشدة من جانب مقرضيه الذين أعاروه بعض المبالغ الصغيرة على أعماله في الفضة والنحاس، لأنه لم يستطع الوفاء بقروضه في الوقت المحدد للسداد وفق الاتفاق، وجميعهم يريدون منه الدفع رغم ظروفه. وهم لا يعادونه بأشخاصهم فقط، ولكنهم وبخبث، يصرفون نيات الآخرين عن مساعدته كلما حاول التقدم بطلبات للحصول على قروض مالية لإرضائهم، ولأجل استكمال أعمال انغمس فيها لفائدة الأسرة النمساوية ومصلحته (يعنى الإمبراطور).

وأرجع مارتن أفعالهم لسبب غير سوي، ألا وهو الابتهاج بإحباطه، وأخذ الأعمال التي كاد أن يكملها لأنفسهم، بعد رؤيتهم له وقد نجح إلى حد كبير بأعمال ضخمة، واجتهاد في تحقيق الكثير من الاكتشافات الممتازة في المعادن، والتي من شأنها – وفق قوله – وبمشيئة الرب، جلب الشرف والأرباح الضخمة له (يعنى الإمبراطور) ولكل البيت النمساوي الحاكم.

---

[٧] **الفلورين:** اسمه نسبة إلى مدينة فلورنسا الإيطالية، وسكته مدينتا فلورنسا وجنوة سنة ١٢٥٢م. وعادلت قيمته حوالي أربع جرامات ذهب. ووجد على وجه هذه العملة صورة القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام)، وعلى ظهرها زهرة الزنبق. وانتشرت هذه العملة انتشارًا كبيرًا حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي. انظر:

Encyclopaedia Universalis, Paris, 1990, tome. 24, part, II, p. 1298.

[٨] **شواتز:** Schwatz أو Schwaz، مدينة في إقليم تيرول Tyrol الذي كان مركزا مهمًا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين لتعدين الفضة، وقدمت ثروة معدنية لأباطرة النمسا.

شعار أسرة بومجارتن نقلا عن النسخة اللاتينية

واختتم مارتن بومجارتن خطابه، أنه ولكل ما تقدم، وبالأخذ في الاعتبار كل ما ذكره فيما يختص به وبأبويه وأجداده، قد تشجع وكله أمل وثقة في أن يطلب من إمبراطوره اللامع فرديناند حمايته من تلك الممارسات الخبيثة. ولا يبق بشأن سيرة مارتن بومجارتن، إلا القول إن منيته وافته سنة ١٥٣٥م، عن سن يناهز الثانية والستين سنة من عمره [٩].

٣- المصادر المقارنة من زائري الإسكندرية الأوروبيين:

(9) Martin Baumgarten, Op. Cit., pp. 427 – 8.

حظيت الإسكندرية في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين، بزيارة العديد من الرحالة والسفراء الأوروبيين الذين أمكن مقارنة رواياتهم عنها وعن مدن وقرى دلتا النيل في تلك الفترة بما جاء عند مارتن بومجارتن في هذا الشأن، كما سيأتي في سياق البحث، فضلا عن مصدرين عربيين معاصرين فقط لندرة مصادر تلك الفترة، مما يجعل لزاما علينا التعريف بهم. ولقد تمثلت المصادر الأوروبية في:

أ- **ميشولم بن ميناحيم (١٤٨١م):**

في سنة ١٤٨١م، زار الإسكندرية في رحلة قادته في نهايتها إلى فلسطين الربي الإيطالي ميشولم بن ميناحيم. ولقد تسني له الإقامة في الإسكندرية ستة أيام فيما بين السادس والثاني عشر من شهر يونيو، وترك لنا وصفه عنها الذي اعتمدنا عليه في البحث. وتبع ذلك رحلته على ضفاف النيل انطلاقا من رشيد بداية من اليوم الثالث عشر من يونيو والتي لم تستغرق حسب قوله أكثر من يومين، إذ وصل للقاهرة في يوم الرابع عشر من يونيو. وكل ما يعرف عنه من خلال ماورد في روايته أنه من أسرة ثرية عاشت في مدينة فلورنسا في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان والده يمتلك أكثر من مئة ألف دوكات [١٠] Ducat، وضيعة على أقل تقدير. ولقد نشرت ذكريات ميشولم عن تلك الرحلة لأول مرة في فيينا سنة ١٨٨٢م، وذلك نقلا عن مخطوطة فلورنسية وحيدة، وأعاد إليكان ناثان أدلر Elkan Nathan Adler نشرها بالإنجليزية [١١].

ب- عوباديا جاري دا بيرتينورو (١٤٨٧م):

---

[١٠] **الدوكات:** تم ضرب هذه العملة في البندقية لأول مرة سنة ١٢٨٤م، وكان وزنها ثابت يقدر متوسطه بحوالي 3.51 جرام ذهب. ولقد سادت الدوكات عالم التجارة في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى لوزنها الثابت ونقائها. ولقد وصفها أحد الباحثين بأنها "دولار العصور الوسطى" مقارنة بما يمثله الدولار من مكانة في عالم الاقتصاد المعاصر. كذلك فقد سادت الدوكات السوق المملوكية بداية من سنة ١٣٩٩م / ٨٠١هـ، لأن العملات المملوكية كان يعوزها النقاء والوزن الثابت. ولقد بذل السلاطين المماليك جهودا كبيرة لإنهاء هذه السيادة بإصدار عملة جديدة في مواجهة الدوكات. وتوجت تلك المحاولات بإصدار الدينار الأشرفي نسبة إلى السلطان الأشرف برسباي سنة ١٤٢٥م، والذي حل بنجاح محل الدوكات كعملة ذهبية أولى في سلطنة المماليك حتى نهايتها. ولمزيد من التفاصيل حول دوكات البندقية والدينار المملوكي ومحاولة كل منهما الاستئثار بعالم الاقتصاد في دولة المماليك، انظر:

Bacharach, J. L., The Dinar versus the Ducat, in. International Journal of Middle East, vol, 1973, pp. 77 – 96.

[11] Meshullam Ben R. Menahem, The Travel of Rabbie Meshullam Ben R. Menahem of Volterra, in. Jewish Travellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan Adler, London, 1930, pp. 156, 157, 163, 172.

كان الربي الإيطالي عوباديا جاري دا بيرتينورو، من أكثر رجال الدين اليهود تميزا في زمانه. ويتضح من ثلاث خطابات تركها عوباديا، وترجمها عن الألمانية والعبرية ونشرها بالإنجليزية إليكان ناثان أدلر، أنه هاجر إلى فلسطين سنة ١٤٨٧م قادمًا من إيطاليا. وجاءت زيارته للإسكندرية في طريقه إليها، حيث أمضى أسبوعا بها بداية من ١٤ يناير سنة ١٤٨٧م، وترك لنا وصفا لها. ومن ثم غادرها إلى رشيد حيث صعد لمركب نهري نقلته إلى فوة حيث أمضى يومين، غادرها بعدها إلى القاهرة. وجدير بالذكر، أنه وبعد هجرته لفلسطين حل ببيت المقدس، ليصبح أحد قادة اليهود هناك، ودامت اقامته بها حتى وفاته سنة ١٥٠٠م [١٢].

ج- أرنولد فون هارف (١٤٩٧م):

رحالة ألماني وُلد سنة ١٤٧١م، كابن للنبيل آدم فون هارف Adam von Harff، ذو المكانة المميزة في بلاطي أدواق جوليخ Jülich، وجيلدرس Gelders، الواقعتين بالقرب من مدينة كولونيا Cologne. ولا يعرف شيئا عن صبا وشباب أرنولد فون هارف، وإن كان قد أشار من خلال روايته أنه بدأ رحلته للشرق في نوفمبر سنة ١٤٩٦م، وهو في سن السادسة والعشرين، وأنه رجع إلى كولونيا في نوفمبر سنة ١٤٩٩م. وبعد عودته، ورث العديد من ممتلكات أعمامه، كما تزوج في سنة ١٥٠٤م، من مارجاريث فون ديم بونجارت Margarethe von Dem Bongart، ولكنه لم يتمتع بذلك كثيرا إذ ما لبث أن توفي في العام التالي. ورغم قلة ما أورده من تواريخ لرحلته، تجعل من الصعوبة بمكان التحديد الزمني الدقيق لمحطات تلك الرحلة، إلا أنه ولحسن الحظ ومن خلال ما أورده من أنه وصل البندقية في ٣ أبريل سنة ١٤٩٧م، ومنها ركب سفينة تجارية نقلته إلى الإسكندرية في سفرة كانت تستغرق ما يزيد عن الشهر، ولما كنا نجد كذلك أرنولد فون هارف يغادر القاهرة في طريقه لسيناء في ٢ يوليو من نفس العام بعد أن أمضى بها قرابة الشهر؛ فيمكن القول إن زيارته للإسكندرية ومدن دلتا النيل كانت في ربيع سنة ١٤٩٧م، وتحديدا في وقت ما خلال شهري مايو ويونيو من هذا العام، وجاء وصفه لمشاهداته عنها معبرا عن أحوالها وقتذاك [١٣].

---

(12) Obadiah Jaré da Bertinoro, The Letters of Obadiah Jaré da Bertinoro, in. Jewish Travellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan Adler, London, 1930, pp. 209, 220 – 3.

(13) Arnold von Harff, The Pilgrimage of Arnold von Harff. Knight, from Cologne, through Italy, Syria, Egypt, Arabia, Ethiopia, Nubia, Palestine, Turky, France and Spain, which he Accomplished in the Years 1496 to 1499, translated from the German and edited with notes and an introduction by. Malcolm Lettes, F. S. A., London. 1946, pp. XIII – XIV, XXXIII – XXXV.

د- فرانسيسكو سيريانو (حوالي ١٥٠٣م):

وُلد فرانسيسكو سيريانو سنة ١٤٥٠م، في البندقية لأسرة نبيلة مختصة بالتجارة البحرية. وعمل منذ الثانية عشرة من عمره على مركب عمه (خاله) التجارية وجاب عليها منطقة حوض البحر المتوسط. وحتى سنة ١٤٧٥م، كان قد قام بحوالي ست عشرة رحلة. وكانت موانئ البحر المتوسط بما فيها موانئ الشمال الإفريقي هي أكثر الموانئ التي تردد عليها. وعن طريق هذه الاتصالات التقط اللسان والعادات اليونانية والعربية. وفوق ذلك، اعتاد حياة الفنادق للتجار الأوروبيين في المدن البحرية، التي لعبت دور الرابط بين مختلف الأمم والتجار والحجاج الواصلين من أوروبا [١٤].

وفي سن الخامسة والعشرين، قرر فرانسيسكو سيريانو أن يصبح أحد الإخوان الفرانسيسكان، حيث رسم راهبا سنة ١٤٧٥م، في كنيسة القديس فرانسيسكو ألا فيجنا St. Francesco a la Vigna في البندقية. وبعد بضعة سنوات تعرض للمرض، وظن الأب بول دا كانيتو أوف مانتوا Paul da Canneto of Mantua القيم على دير صهيون في بيت المقدس، أنه من الأفضل أن يصحبه معه لفلسطين لكي يتعافى. وهناك اختاره الأب بول لكي يكون مسئولا عن دير الفرانسيسكان في بيروت في الفترة ما بين ١٤٨١ – ١٤٨٤م. ولقد عاد إلى أومبريا Umbria سنة ١٤٨٤م، حيث علم بانضمام أخته لدير سانتا لوتشيا Santa Lucia في مدينة فوليجنا Foligna، فقام بزيارتها. ولقد رجونه أخوات الدير أن يدون لهن مشاهداته ومعارفه عن فلسطين، فشرع سنة ١٤٨٥م في كتابة المسودة الأولى لكتابه. وأتاحت له خلوته في دير بيشينيانو Piscignano الانتهاء من كتابة مسودة مؤلفه عن الأراضي المقدسة، فضلا عن تكريس نفسه للوعظ ككثير من أخوة الدير [١٥].

لم يشأ رؤساء فرانسيسكو سيريانو أن يفقدوا خبرته عن فلسطين، فأرسلوه إليها ثانية سنة ١٤٩٣م، ولكن كقيم على دير صهيون هذه المرة، لمدة ثلاث سنوات كما جرت العادة. وبعد قضاء فرانسيسكو سيريانو مدة وظيفته، فضل البقاء في فلسطين على العودة إلى إيطاليا. وفي سنة ١٥٠٥م نجده يقوم بالوعظ في الجالية البندقية في مصر. وبعد خمس سنوات وسنة ١٥١٠م، قبض عليه هو وبقية الإخوان الفرانسيسكان في بيت المقدس وأرسلوا إلى السجن بالقاهرة. واستمروا في السجن إلى أن أطلق سراحهم سنة ١٥١٢م. وما لبث أن اختير بعدها للمرة الثانية قيمًا على

وراجع كذلك: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١ – ١٥١٧م / ٦٩٠ – ٩٢٣هـ)، ٢ جزء، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية) ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨م، وأعيد طبع الجزء الأول سنة ٢٠١٩م، ج١، طبعة ٢٠١٩م، ص ٥٠ . ٥١.

(14) Francesco Suriano, Treatise on the Holy Land, translated from the Italian by. Theophilus Bellorini, and Eugene Hoade with a preface and notes by. Bellarmino Bagatti, Jerusalem, 1949, pp. 1 – 2.

(15) Ibid., Op. Cit., pp. 2 – 3, 15.

دير صهيون في نفس العام، ليبقى في ذلك المنصب حتى عام ١٥١٤م، ولقد كتب في تلك الفترة النسخة الثانية من كتابه. وفي سنة ١٥١٥م، غادر فلسطين بصفة نهائية، وعاد إلى أومبريا، حيث أصبح سنة ١٥٢٨م قيما لنفس الدير الذي عاش فيه من قبل، على الرغم من أنه كان يبلغ من العمر آنذاك ثمانية وسبعين، أو تسعة وسبعين عاما. وربما يكون قد توفي بعد ذلك بقليل، ولكن تاريخ وفاته غير معروف بالتحديد. وجدير بالذكر، أنه انتهى من المسودة الثانية لكتابه عن الأراضي المقدسة سنة ١٥١٤م، كما كان سعيدًا برؤية كتابه ينشر سنة ١٥٢٤م في البندقية بواسطة الناشر فرانسيس بيندوني Francis Bindone [١٦].

وعلى الرغم من أن فرانسيسكو سيريانو ووفق قوله من إنه زار الإسكندرية مرات كثيرة كانت أولها سنة ١٤٦٢م، وآخرها سنة ١٥٠٣م، وأنه ألقى عظة الصوم الكبير في بنادقة مجتمع الإسكندرية، عندما كان قيما لدير صهيون في المرة الأولى، وذلك في وقت خدمة القنصل البندقي ألوفس ريموندو Aluvise Rimondo لجمهورية البنادقة في مصر، إلا أنه ختم قوله بوجود أشياء كثيرة عن الإسكندرية باستطاعته إخبارنا عنها، ولكنه سيؤجلها لرواية أخرى [١٧]. ولذلك رغم كونه الأكثر عددًا للزيارات، والأكثر رؤية لها، وإقامته بها الوقت الأطول من بين كل المصادر المقارنة ليوميات مارتن بومجارتن، جاءت روايته عن الإسكندرية مجرد سطور لا تشفي غلة الباحث برغم زياراته المتعددة لها.

هـ- جان ثينو:

كان جان ثينو Jean Thenaud مقدم دير الفرانسيسكان في مدينة أنجوليم [١٨] Angoulème الذي تأسس بالمدينة سنة ١٢٣٠م. ولكن، ولما كانت قائمة مقدمي الدير لا تبدأ إلا من سنة ١٥٤٠م فقط، في الوقت الذي لا يمتلك فيه أرشيف أنجوليم أي أوراق تتعلق بجان ثينو، فسنة وفاته مجهولة، ومعلوماتنا عنه مأخوذة من أعماله، وبخاصة رحلته وراء البحار التي تقدم لنا فقط بعض التفاصيل عن حياته [١٩].

كان جان ثينو واحداً من المحميين من لويز دو سافوا Louise de Savoie، وابنها فرانسوا دانجليم François d` Angoulème. ولقد أرادت لويز الاستفادة من إرسال جان ثينو كأحد السفراء إلى مصر لكي يذهب

---

(16) Ibid., Op. Cit., pp. 3, 8 – ١١.

(17) Ibid., Op. Cit., p. 199.

) **أنجوليم:** مدينة في جنوب غرب فرنسا.(18

(19) Jean Thenaud, Le Voyage d` Outremer (Egypte, Mont Sinay, Palestine) de Jean Thenaud Gardien du Couvent des Cordeliers d` Angoulème, 1512, publié et annoté par Ch. Schefer, Membre de l` Institut, dans. Recueil de Voyages et de Documents pour servir à l`Histoire de la Géographie depuis le XIII^{e} jusque` à la fin du XVI^{e} Siècle, sous la direction de MM. Ch. Schefer, et Henri Cordier, tome. V., Paris, MDCCC XLXXI, p. LXXVII.

لبيت المقدس، للصلاة من أجلها في الأماكن المقدسة، وكتابة اسمها في مهد المسيح في بيت لحم. في حين أراد كونت أنجوليم منه زيارة بلاد فارس لجمع معلومات عن قوة الشاه إسماعيل الصوفي الذي لفتت غزواته أنظار الأمراء المسيحيين، ورأوا فيه منافسا منتظرا لقوة العثمانيين. ومن فارس كان يجب على جان ثينو الذهاب إلى الهند. غير أن هذا المشروع لم يتم وضعه موضع التنفيذ. هذا، ولقد عُهد بجان ثينو لعناية فرانسوا دو بونجان François de Bonjean، حيث ركب السفينة التي وضعت تحت عناية السفير أندريه لو روا André le Roy. والتي نقلتهم إلى إيطاليا حيث أمضوا فصل الشتاء. ولكن الشعور العدائي ضدهم في تلك البلاد جعلهم يقررون مواصلة السفر، فركبوا سفينة راجوزية [٢٠] في طريقها للإسكندرية [٢١].

وبهذا الشكل، كان جان ثينو أحد أعضاء سفارة فرنسية أرسلها السلطان لويس الثاني عشر Louis XII ملك فرنسا (١٤٩٨ . ١٥١٥م) للسلطان المملوكي قانصوه الغوري (١٥٠١ . ١٥١٦م) لمطالبته بإطلاق سراح الأخوة الفرانسيسكان ومن بينهم فرانسيسكو سيريانو من سجنهم بالقاهرة. غير أن السفارة لم توفق في هذا الأمر، ولم يقبل السلطان قانصوه الغوري بالوساطة الفرنسية بشأن هؤلاء المعتقلين. وبعد عودته من رحلته إلى الشرق، عاد جان ثينو إلى ديره بأنجوليم.

وفي إطار رحلته لمصر، أمضى جان ثينو تسعة عشر يوما في الإسكندرية. فقد وصلها في التاسع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٥١٢م، ورحل عنها في الثامن عشر من الشهر التالي (مارس ١٥١٢م) في طريقه إلى رشيد، ومنها عبر رحلة نهرية إلى القاهرة. وترك لنا جان ثينو نص شاهد عيان، عن تلك الفترة في رواية سفره التي سجلها بعد عام ١٥٢٣م، تم مقارنته بما جاء عند مارتن بومجارتن بهذا الشأن [٢٢].

و – دومينيكو تريفيزان (١٥١٢م):

سفير جمهورية البندقية من قبلها لدى السلطان قانصوه الغوري سنة ١٥١٢م. وكانت البندقية قد أرسلته لإقناعه بإطلاق سراح جميع التجار الفرنج والرهبان الفرانسيسكان الذين كان قد قبض عليهم، ووضعهم السجون منذ سنة ١٥١٠م، ومطالبته بإعادة فتح كنيسة القيامة بعد اتخاذه قرارًا بإغلاقها أمام الحجاج الأوروبيين. وهي الأوامر التي أصدرها السلطان ردًا على هجمات سفن البرتغاليين في المحيط الهندي، وسفن الإسبتارية في البحر المتوسط

[٢٠] سيرد لاحقا التعريف بمدينة راجوزة التي تنتمي لها هذه السفينة، ضمن التعريف بأبرز الموانئ التي مثلت خط سير رحلة مارتن بومجارتن البحرية من البندقية وحتى الإسكندرية.

[21] Jean Thenaud, Op. Cit, pp. LXIX – LXXI.

[22] Ibid, Op. Cit, pp. 20, 23.

على السفن المصرية. وفي حين فشلت السفارة الفرنسية التي كان جان ثينو أحد أفرادها في هذا الأمر، نجح السفير البندقي دومينيكو تريفيزان في مسعاه الذي جاء من أجله إلى مصر [٢٣].

والواقع أن قليل من رجالات الدولة من لهم سيرة نشطة، ولعب دورا في الدبلوماسية البندقية مثل دومينيكو تريفيزان. فبداية من سنة ١٤٨٥م وحتى وصوله إلى مصر سنة ١٥١٢م، نجده وقد تم إرساله ممثلا وسفيرا في مناسبات عديدة للتهنئة، أو التفاوض، أو لإجراء مباحثات سلام، أو مفاوضات تجارية، مع دوق ميلان وبابا روما ولدى السلطان العثماني في القسطنطينية، وحكام فلورنسا، وملوك إسبانيا وفرنسا. وفي سنة ١٤٩٧م تم تعيينه Podesta، وهو لقب يمنح لكبار الموظفين المدنيين. وفي سنة ١٥٠٣م أعطي لقب Procurator وهو لقب يمنح للموظفين المسؤولين عن الشؤون المالية، أو حكام للأقاليم الصغيرة. وبهذه الكفاءة الدبلوماسية المميزة جاء دومينيكو ترافيزان لمصر ليتمكن من عقد معاهدة سنة ١٥١٢م مع السلطان قانصوه الغوري. وإلى جانب ذلك كان مهتمًا بدراساته للكلاسيكيات، واستمر في عمله حتى وفاته في ٢٦ ديسمبر سنة ١٥٣٦م عن سن كبيرة. ويوجد قبره في كنيسة سان فرانسيسكو ديلا فيجنا San Francesco della Vigna [٢٤].

وآخر ما يقال بشأن سفارة دومينيكو ترافيزان إلى مصر سنة ١٥١٢م، إن سفينته ألقت مرساتها مدة أسبوع أمام أبو قير، ورحلوا عنه بعد الحصول على أمان الوصول يوم السادس عشر من أبريل، حيث حل بالإسكندرية، وأقام بها فيما بين السابع عشر والثامن والعشرين من أبريل. أما رحلته من الإسكندرية إلى رشيد برا، ووصولا من الأخيرة للقاهرة نهرا، مرورًا بفوة وغيرها من قرى دلتا النيل فقد استغرقت الفترة من التاسع والعشرين من أبريل حتى السادس من مايو [٢٥].

ومن خلال ما تركه دومينيكو تريفيزان من تفاصيل سفارته، جاء وصفه لمدينة الإسكندرية ومدن دلتا النيل، وهو الوصف الذي قارناه مع مثيله عند مارتن بومجارتن في إطار ذلك البحث.

---

[٢٣] لمزيد من التفاصيل عن تلك السفارة، راجع: أحمد دراج (دكتور): المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٤٣، ١٤٦ – ١٥١؛ نعيم زكي فهمي (دكتور): طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٩٧٣م، ص ٩٤ – ١٠٧.

[24] Domenico Trevisan, La Relation de l` Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d` Egypte 1512, publié et annoté par Ch. Schefer, Membre de l` Institut, dans. Recueil de Voyages et de Documents pour servir à l`Histoire de la Géographie depuis le XIII^{e} jusque` à la fin du XVI^{e} Siècle, sous la direction de MM. Ch. Schefer, et Henri Cordier, tome. V., Paris, MDCCC XLXXIV, pp. LXV – LXVI.

[25] Ibid., Op. Cit., pp. 169 – 71, 177 – 9.

٤- المصادر العربية المقارنة:

أ- ابن إياس (ت ١٥٢٣م):

أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، جركسي الأصل، وُلد بالقاهرة عام ١٤٤٨م. لم يعمل بوظائف الدولة، أو تقاضي مرتبا من دواوين الحكومة، أو وُصِل بجائزة نقدية أو عينية من حكام ذلك العصر، أو كانت لهم صلة بقصورهم. وإنما عاش على موارد إقطاعه الذي ورثه عن أسرته، وساعدته على التفرغ للكتابة والتأليف. وتميزت كتاباته بدقتها، ولا سيما الفترة التي عاصرها. وينفرد كتابه "بدائع الزهور في وقائع الدهور" بميزة خاصة، إذ أرخ فيه لأواخر سلطنة المماليك، وتحول مصر من سلطانهم إلى ولاية تابعة للسيادة العثمانية. وكان المصدر العربي الوحيد عن تاريخ مصر في تلك الفترة، ووقوعها تحت سيطرة العثمانيين، وتطور العلاقات بين العرب والأتراك العثمانيين. وكتب ابن اياس كتابه بطريقة الحوليات، وكان من المدونات عظيمة الفائدة، في النواحي الحربية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والثقافية لدولة المماليك. ولقد أمكن مقارنة العديد مما ورد فيها من معلومات، بما سجله مارتن بومجارتن في يوميات رحلته. ويبقى القول في هذا الشأن إن وفاة ابن اياس جاءت سنة ١٥٢٣م [٢٦].

ب_ ليو الإفريقي (حوالي ١٥١٧م):

هو الحسن بن محمد الوزان الزياتي. وُلد نحو عام ١٤٨٣م، وفي رأي آخر ما بين عامي ١٤٨٩م، ١٤٩٥م، بمدينة غرناطة. والحسن هو اسمه، ومحمد اسم والده، والوزان لقب أسرته. وانتقل مع أسرته صغيراً إلى فاس حيث درس على أعلام القرويين. ولقد لفت نبوغه نظر سلطان فاس محمد الوطاسي، فقربه إليه وأسند إليه مهام سياسية خطيرة. وكانت تلك المهام السياسية بالإضافة للنشاط التجاري لأسرته هي ما دعاه للقيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه، وتسجيل مشاهداته في مذكرات شبه يومية غدت أساس كتابه الجغرافي "وصف إفريقيا". ومثلت رحلته إلى تونس في طريق الرجوع للمغرب آخر رحلاته. ويبدو أنه مكث بها حوالي السنتين، إذ نجده في سنة ١٥١٨م، وفي قول آخر سنة ١٥٢٠م، يبحر من تونس عائدا للمغرب، ولكن حظه العسر أوقعه في أيدي قراصنة إيطاليين أسروه بالقرب من جزيرة جربة، وأخذوه إلى نابولي، ثم قدموه هدية للبابا ليو العاشر Leo X (١٥١٣ . ١٥٢١م) في روما، الذي سُر بهذا العالم العربي وتوثقت الصلة بينهما. ولعل من أسباب هذا التقارب ذكاء الحسن الوزان، وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية. إذ تظاهر بالتمسح بالمسيحية وحمل اسم مالكه فصار يدعى ليون الإفريقي، وإن كان قد استمر على الإسلام طوال السنين الثلاثين التي قضاها أسيرا في إيطاليا. ولقد شُغل خلالها

([٢٦]) للمزيد راجع، فاضل عبد اللطيف الخالدي (دكتور): ابن اياس المصري ومنهجه في البحث التاريخي، بحث ضمن بحوث ندوة ابن اياس التي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة (١٦ . ٢١ ديسمبر ١٩٧٣م)، ونشر في كتاب "ابن اياس (دراسات وبحوث) إشراف د. أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٧٧، ص٢٥ – ٣٦.

بتدريس اللغة العربية للخاصة من رجال الكنيسة، ولعامة الطلبة في مدرسة بولونيا. إضافة لما وضعه من مؤلفات باللغة الإيطالية أو اللاتينية في التاريخ والجغرافيا واللغة. وتتصل موضوعاته اتصالًا وثيقا بالمسلمين وبلادهم ولسانهم. وفي سنة ١٥٥٠م، اختفى الحسن الوزان من روما في ظروف غامضة، وتوجه إلى تونس حيث عاد لحياته الإسلامية الأولى. وعند هذا الحد يسدل الستار عليه، ولا يعرف هل بقي في تونس أم عاد إلى أهله في فاس. كذلك فمن غير الممكن تحديد مكان وتاريخ وفاته، إلا أنه بالاستطاعة القول بإنه توفي بعد عام ١٥٥٠م. ويعد كتاب "وصف إفريقيا" القسم الثالث من كتاب الجغرافيا العامة الذي ألفه الحسن الوزان بالعربية، ثم ترجم المؤلف هذا القسم إلى الإيطالية عام ١٥٢٦م، بمدينة روما. ويعرف من خلال ما سجله أنه كان بمدينة رشيد في شهر يونيو سنة ١٥١٧م، وأنه أمضى بعض الوقت بمصر، أمكنه خلالها تسجيل العديد من صفحات كتابه وصف أفريقيا عنها. وهي الصفحات التي تم مقارنتها بيوميات مارتن بومجارتن [٢٧].

٥- رحلة مارتن بومجارتن من البندقية إلى الإسكندرية:

في شهر أبريل من سنة ١٥٠٧م، وكما يقول واستجابة لاستدعاء إلهي توجه مارتن بومجارتن من منزله في كويستين بالنمسا نحو مدينة البندقية بصحبة الراهب فينسنتوسVincentus وخادم يسمى جورج George (جريجوري). وهناك وجد أشخاصا كثيرين أتوا إليها من أماكن كثيرة بغرض السفر مثلهم. وفي البندقية بقوا مدة شهر شاهدوا خلالها معالمها المميزة من كنائس ومباني وحدائق وغيرها، كما تزودوا بكل ما كان ضروريا لرحلتهم، ثم ارتقوا إلى سفينة كانت جاهزة وتستعد للإبحار [٢٨].

وجاء اتفاقهم مع سيد السفينة على القمرة المخصصة لهم في الخامس والعشرين من يوليو. وعندما أصبحت الرياح مواتية، أحضر التجار بضائعهم، وتم تحميل السفينة بكامل حمولتها. ووضع مارتن بومجارتن وصحبته أنفسهم

---

[٢٧] الحسن بن محمد الوزان الزياتي (ت ٩٥٧ هـ): وصف إفريقيا، ألفه بالإيطالية جان ليون الأفريقي (وهو الحسن بن محمد الوزان الزياتي)، وترجمه من الإيطالية إلى الفرنسية ترجمة جديدة آ. إيبولار، وترجمه من هذه الترجمة الفرنسية إلى العربية الدكتور عبد الرحمن حميدة، وراجعه الدكتور علي عبد الواحد، القاهرة (الهيئة العامة للكتاب) ٢٠٠٥م، ص ٢٠ . ٢٣. وراجع كذلك: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): العالم العربي في نظر الرحالة الأوروبيين: مصنف آل أدورني كمصدر أوروبي عن تونس في النصف الثاني من القرن ١٥م (دراسة مقارنة)، بحث ضمن أبحاث ندوة "أضواء جديدة على مصادر تاريخ"، منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، مجلة حصاد، العدد ٦، القاهرة، ١٩٩٨م، وأعيد نشره في بحوث كتاب بعنوان: إبراهيم سعيد فهيم محمود: دراسات في تاريخ العصور الوسطى وحضارتها، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٠٦م، ص ٢٩٨، ح ٢٦.

[28] Martin Baumgarten, Op., Cit. p. ٤٢٩.

وأمتعتهم في قارب، وصعدوا إلى السفينة التي أخذت تستعد لرفع أشرعتها والبدء في الإبحار ومغادرة الميناء. بيد أنه، حدث أن قامت عاصفة مفاجئة اضطرتهم للعودة ووضع المرساة [٢٩].

ومع شروق شمس اليوم التالي (٢٦ يوليو) هدأت الريح وبدأت السفينة الإبحار. فوصلوا يوم التاسع والعشرين من يوليو أمام روفيجنو [٣٠] Rovigno، أو Rovinj وهي مدينة في شبه جزيرة Istria في البحر الأدرياتيكي كانت يومها تابعة لجمهورية البندقية. وألقت السفينة مرساتها، وهبطوا للمدينة حيث استعادوا نشاطهم. كما اشتروا بعض حاجياتهم من الزاد، ثم عادوا للسفينة، ليبقوا فيها ثلاثة أيام دون حراك في ظل رياح معاكسة غير مناسبة للإبحار [٣١].

وفي الثاني من أغسطس هبت رياح مناسبة للإبحار دفعت السفينة إلى ميناء بولا [٣٢] Pola عقب يوم من الإبحار، حيث هبطوا وأقاموا بها ستة أيام لشراء الزاد، وانتظاراً لوصول سفينة أخرى. وأثناء إقامتهم بالمدينة شهدوا قيام أهلها بصيد سمك التونة بكميات كبيرة. وأُخذ بعض من أسماك التونة إلى سطح السفينة مقابل أسعار رخيصة حيث تم تمليحها وتقديمها لهم حتى وصول السفينة للإسكندرية [٣٣].

وفي العاشر من أغسطس وصلت السفينة الأخرى المنتظرة، وكانت من نوع الشيني [٣٤] galley، وتحمل على ظهرها تغري بردي الترجمان Tongobarden سفير سلطان مصر إلى جمهورية البندقية [٣٥]. ولم يهبط تغري

---

(29) Ibid., Op., Cit., Loc. Cit.

(٣٠) **روفيجنو:** تقع هذه المدينة التي كانت تتبع البندقية على مسافة قريبة من مدينة بارنزو Parenzo، وكانت تسمى كذلك روبينا Rubina. وكثيرا ما أمت ميناء المدينة سفن الحجاج، حيث اشتروا منه بعض احتياجاتهم، كما ترددوا على كاتدرائية المدينة المكرسة للقديسة يوفيميا Ste- Euphemia. انظر: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة، ج١، طبعة ٢٠١٩، حاشية ٢، ص ٢٣٦، ٢٣٩.

(31) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 430.

(٣٢) **مدينة بولا:** تقع على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي، قامت البندقية بحملة عليها سنة ١١٥٠، ولكنها لم تخضع لها إلاسنة ١٣٣١م. ولقد قامت جنوة بمهاجمتها سنة ١٣٥٤م، كما استولى المجريون عليها فيما بين ١٤٠٩. ١٤٢٠م. انظر: إبراهيم سعيد فهيم محمود: حركة الحج الأوروبي، ج١، طبعة ٢٠١٩، حاشية ٢، ص ٢٣٩.

(33) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 430.

(٣٤) **الشيني:** كان هذا النوع من السفن يتسع لثلاثمائة مسافر. وكان يطلق عليه بالإيطالية Galera، وبالفرنسية Galère. وهي مركب مستطيلة تدفع بواسطة الأشرعة والمجاديف. وكان النوع الأكبر من بينها يسمى ثلاثي المجاديف لوجود ثلاثة مجدفين على كل دكة للمجدفين، والأصغر ثنائي المجاديف، لأن كل دكة للمجدفين به ضمت اثنين من المجدفين. ولقد بلغت أبعادها نحو ٥٣ متر طولا، و١١ متر عرضا، و٢٩ متر ارتفاعا. راجع: درويش النخيلي (دكتور): السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية، ١٩٧٤م، ص ٤٦، ٨٤. وكذلك:

بردي الترجمان من فوره للميناء، ولكنه أُستقبل بالتكريم من حاكم المدينة الذي قُدم له ترفيه رائع. ففي خارج المدينة وُجدت أيكة قديمة كانت أفرعها منتشرة بشكل كبير جدا. وبجوارها كان هناك نبع مياه حلوة لطيف. وتحت ظل هذه الأيكة، وُضعت مقاعد مغطاة بالحرير، وطاولة احتوت أصنافاً كثيرة منوعة وشهية من الأطعمة، واصطف بجوارها عدد ضخم من الخدم لخدمة الضيوف. وعلى تلك الطاولة اتخذ تغري بردي مقعده، كما دُعي مارتن بومجارتن وصحبته، وبعض التجار البنادقة لتناول الطعام. وبينما الجميع يأكلون ويشربون من النبع البارد، تحول الجو ليصبح حارًا جدًا. وبسبب إفراطهم في أكل العنب الأخضر أصيب مارتن بومجارتن وعدد من الضيوف بحمى شديدة، شفوا منها بعد صيام ثلاثة أيام.

وفي اليوم الثالث عشر من أغسطس رحلت السفينة وعليها مارتن بومجارتن ورفقته، وبطبيعة الحال تغري بردي عن ميناء بولا، ولكنها تعرضت كما يذكر مارتن بومجارتن لعاصفة بحرية كادوا يفقدوا بسببها حياتهم في البحر الأدرياتيكي. لتشق السفينة بعدها طريقها حيث وصلت في اليوم السادس عشر من أغسطس إلى راجوسا [٣٦] Ragusa في دالماشيا Dalmatia [٣٧].

Sotas, J., Les Messageries Maritimes de Venise aux XIV^{e} & XV^{e} Siècles, Paris, 1938, p. 76.

[٣٥] عن تلك السفارة يقول ابن إياس في شهر ذي القعدة سنة ٩١١ هـ (أبريل سنة ١٥٠٦م)، "وفيه سافر تغري بردي الترجمان إلى نحو بلاد الفرنج وأخذ معه كتاب البترك؛ وكان قد تزايد تعبث الفرنج بالسواحل وأخذ أموال التجار". انظر: ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي): بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى، الجزء الرابع من سنة ٩٠٦هـ إلى سنة ٩٢١هـ، ١٥٠١م إلى ١٥١٥م، الجزء الخامس من سنة ٩٢٢هـ – ٩٢٨هـ (١٥١٦ – ١٥٢٢م)، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م، ج ٤، ٩١. لمزيد من التفاصيل عن تغري بردي الترجمان وسفارته وسيرته، راجع بحثنا بعنوان: سيرة أوروبي في البلاط المملوكي: تغري بردي الترجمان ودوره في العلاقات المملوكية الأوروبية ١٤٨١ – ١٥١١م، بحث ألقي بندوة الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم (٥ نوفمبر ٢٠٠٧م – كلية الآداب جامعة الإسكندرية)، ونشر ضمن أبحاث الندوة بمطبوعات مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٨م، ص ١٩٥ – ٢٩٥.

[٣٦] **<u>راجوزة:</u>** Ragusa، مدينة خضعت للسيادة البندقية سنة ٩٩٨م، كسائر مدن إقليم دالماشيا. كانت قبضة البندقية عليها شديدة، حيث كان يحكمها حاكم أو كونت بندقي. وفي سنة ١٣٦٥م، وضعت راجوزة نفسها تحت الحماية التركية، وأخذت في دفع جزية للأتراك كرمز لتبعيتها. غير أنها احتفظت رغم ذلك بقوانينها الخاصة، كما كان الحال في أثناء السيادة البندقية عليها. وفي نفس الوقت كانت تدفع جزية صغيرة لأقرب حاكم لها وهو ملك المجر. انظر: إبراهيم سعيد فهيم محمود: حركة الحج الأوروبي، ج١، طبعة ٢٠١٩، حاشية ٥، ص ٢٤١.

[37] Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 431.

ووصلت السفينة أمام جزيرة كورفو [٣٨] Corfu في اليوم التاسع عشر من أغسطس، وفي اليوم التالي نزل مارتن بومجارتن وصحبته على شاطئ مدينة Grecian، حيث أنعشوا أنفسهم بالطعام والنوم. وفي اليوم الحادي والعشرين من الشهر شاهدوا معالم المدينة، وتجولوا بالجزيرة التي كانت وقتذاك تحت سيادة جمهورية البندقية، واشتروا منها زادهم ثم صعدوا للسفينة وواصلوا إبحارهم [٣٩].

وفي اليوم الرابع والعشرين من أغسطس حلت السفينة بالمورة Morea، وهي شبه جزيرة تقع بين البحرين الإيجي والأيوني، وكانت تدعى قديما البلوبونيز Peloponnesus. وأبحروا في اليوم الذي تلاه من ليبانتو Lepanto إحدى مدن المورة. ومرت السفينة بجزيرة سيريجو Cerigo في اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس، ولكنهم لم يهبطوا بها [٤٠].

اقتربت السفينة من مدينة كانديا Candy بجزيرة كريت [٤١] يوم الثامن والعشرين من أغسطس ودخلت بمينائها. وفي اليوم التاسع والعشرين هبط مارتن بومجارتن ورفقته إلى شاطئها، وذهبوا للمدينة حيث أقاموا بنزل

---

[٣٨] **كورفو:** امتلكت البندقية الجزيرة سنة ١٢٠٤م، عقب اتفاق تم بين الصليبيين لتوزيع ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية بعد سقوطها في أيديهم في الحملة الصليبية الرابعة. وتم تقسيم الجزيرة في الحال كإقطاعات على بعض النبلاء البنادقة، مقابل تعهد كل منهم بإعداد عدد معين من الجند الفرسان والمشاة. وفقدت البندقية السيادة على الجزيرة بعد عشر سنوات، ولم تستعدها إلا في سنة ١٣٨٦م، حينما خلعت الجزيرة نفسها من سيادة نابولي، وتوجهت بالولاء الدائم نحو البندقية. واستمر حكم البندقية للجزيرة تلك المرة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. انظر: إبراهيم سعيد فهيم محمود: حركة الحج الأوروبي، ج١، طبعة ٢٠١٩، حاشية ٥، ص ٢٤٤.

[39] Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 432.

[40] Ibid., Op., Cit., pp. 433 – 4.

[٤١] **كريت:** عُهد بالجزيرة إلى البندقية في تقسيم الإمبراطورية البيزنطية بين الصليبيين سنة ١٢٠٤م. ولقد كان على البنادقة مواجهة النزعة العدوانية من قبل سكان الجزيرة تجاههم، واخماد العديد من ثوراتهم. وحسما لذلك قامت البندقية بإرسال العديد من الأسر البندقية إلى الجزيرة، وقامت بتقسيمها كإقطاعات بينهم في مقابل قيامهم بحماية الجزيرة. وكان يحكم الجزيرة دوق أو حاكم عام تقوم البندقية باختياره، والذي كان أيضا بمثابة القائد الأعلى لكل القوات الموجودة في الجزيرة. وكان يساعده مستشارين، إضافة إلى مجلس مكون من النبلاء البنادقة والنبلاء من أهل الجزيرة. كذلك كانت البندقية ترسل للجزيرة قائدا عاما ليدير شئونها العسكرية. فضلا عن حاكم لكل مدينة رئيسية في الجزيرة. ولقد كان لسكان الجزيرة الحق في تولى بعض الوظائف. كذلك مورست شعائر المذهبين الكاثوليكي والأرثوذكسي في الجزيرة التي استمرت تبعيتها للبندقية، حتى استولى عليها الأتراك في القرن السابع عشر الميلادي. انظر: إبراهيم سعيد فهيم محمود: حركة الحج الأوروبي، ج١، طبعة ٢٠١٩، حاشية ٣، ص ٢٤٦.

للمسافرين أقامه أحد أدواق برجانديا. ومن جزيرة كريت، وبعد تزودهم بحاجياتهم الضرورية، وعندما أصبحت الرياح مواتية للإبحار، غادرت السفينة ميناءها مبحرة في طريقها في الثاني من سبتمبر. ولكن الرياح لم تلبث أن تغيرت، فاضطروا للعودة إلى جزيرة ستانديا Standia القريبة من كريت. وبعد ستة أيام من صعوبة الإبحار تركت السفينة جزيرة كريت خلفها، ثم مرت بجزيرة سكاربانتو Scarpanto التابعة للبندقية والتي تتوسط الطريق بين كريت ومصر [٤٢].

٦- الوصول للإسكندرية، وقواعد الدخول إلى مينائها:

عند ظهر يوم التاسع من سبتمبر، ابتهج مارتن بومجارتن ورفقته برؤية الإسكندرية [٤٣] أمامهم، بما عناه ذلك لهم من نهاية الأخطار التي مروا بها خلال رحلتهم. وفي المساء وصلوا الإسكندرية، حيث البرج المسمى فاروس [٤٤] Pharos، الذي يحرس ويزين الميناء. ووفق الإجراءات المعمول بها عند وصول السفن الغربية للميناء، خفضوا أشرعتهم كما هو معتاد لإثبات احترامهم للسلطان، ليدخلوا بعد ذلك إلى ملاذ داخله [٤٥].

وحري بالإشارة بشأن الإجراءات الأمنية والإدارية المتبعة تجاه السفن الأوروبية حيال دخولها ميناء الإسكندرية، أن الرحالة الألماني أرنولد فون هارف الذي وصل إلى المدينة سنة ١٤٩٦م، أي قبل زيارة مارتن

---

(42) Martin Baumgarten, Op., Cit., pp. 434 – 5.

(٤٣) لمزيد من التفاصيل عن حركة السفر والنشاط التجاري لميناء الإسكندرية، وعن الإجراءات التي كانت تتخذ حيال السفن الأجنبية التي تصل للميناء. راجع: ح. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج ٣، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فوده، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٩٩٤م، ص ٣٠٢ – ٣٠٣؛ فاروق عثمان أباظة (دكتور): أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، الإسكندرية (مطبعة الانتصار)، ١٩٨٨م، ص ٧، ٨، ١١، ١٢، ١٣، ١٦.

(٤٤) **فاروس:** جزيرة فاروس، كانت تعتبر بموقعها الممتاز الخط الأمامي للدفاع عن المدينة، وكانت نهايتها الشرقية تشرف على مدخل الميناء الشرقي، وعلى هذه النهاية أقيمت المنارة القديمة العظيمة، وسميت باسم الجزيرة نفسها فاروس، ثم حرفت بعد ذلك إلى فار أو فنار. وبعد انهيار المنارة القديمة التي انهارت وتداعت على مدى القرنين الرابع عشر، والخامس عشر الميلاديين نتيجة الزلازل والإهمال، أمر السلطان الأشرف قايتباي بإنشاء قلعة مكانها، تم الانتهاء من تشييدها بعد سنتين. وهي القلعة التي تُعرف الآن بقلعة قايتباي. وباتت أول ما يطالعه القادم للإسكندرية بحرًا، وأول ما لاح لمارتن بومجارتن عند وصوله للمدينة مطلع القرن السادس عشر الميلادي. للمزيد عن القلعة، راجع: جمال الدين الشيال (دكتور): تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، الإسكندرية (دار المعارف)، ١٩٦٧م، وأعيد طبعها، القاهرة (دار المعارف)، ٢٠٠٠م، ص ٢١؛ السيد عبد العزيز سالم (دكتور): تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي، لبنان (دار المعارف)، ١٩٦٤م، ص ١٠٧ . ١١٠.

(45) Martin Baumgarten, Op., Cit., pp. 435 – 6.

بومجارتن للمدينة بعقد من الزمان، سجل أنه حال اقتراب السفينة البندقية التي تحمله من الإسكندرية بقرابة ثلاثين ميل إيطالي، أرسل حاكم المدينة (Armereyo) أحد ضباطه لهم. ولقد تفحصهم هذا الضابط وسألهم عمن يكونوا والهدف من وصولهم للإسكندرية، فأخبروه أنهم تجار بنادقة يحملون متاجرًا. فكتب الضابط خطابا بذلك وربطه تحت جناح حمامة زاجل كان قد جلبها معه في قفص وأطلقها على الفور. ووصلت الحمامة للتو لقصر الأمير تحمل التفاصيل بمن يكونوا وبالبضائع التي يحملوها. ومن ثم كان يتم ارسالها فوراً بواسطة الحمام الزاجل من الإسكندرية للقاهرة – كما تم اخباره – إلى السلطان حيث يعقد السلطان مجلسه، ولكنه استدرك أنه لم يشاهد ذلك بنفسه. كما أفاد بدوره أن سفينتهم خفضت شراعها الكبير عند دخول ميناء الإسكندرية كعلامة على احترام القلعة [٤٦].

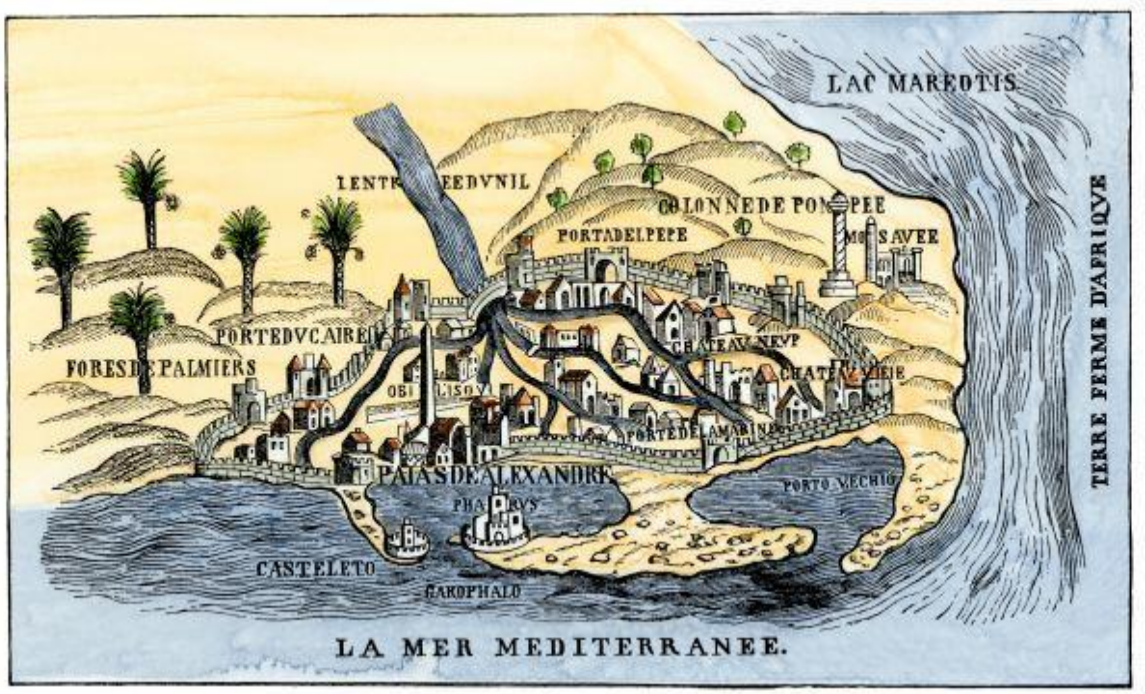

رسم للإسكندرية سنة ١٤٨٣م من رحلة برنارد فون برايدنباخ

أما جان ثينو فقد ذكر عن تلك الإجراءات أنه في صباح يوم التاسع والعشرين من فبراير سنة ١٥١٢م، لاحت لهم قلعة الإسكندرية Le Pharillon d` Alexanderie، وجبالها وأبراجها ومساجدها، وأهرامها (يقصد مسلاتها). وأوضح أنه لا تستطيع أي سفينة وضع مرساتها داخل الميناء الجديد للمدينة إلا بأمان مرور

(46) Arnold von Harff, Op., Cit., p. 92.

saufconduict. وأنهم بالفعل حصلوا على الإذن من أمير الإسكندرية بالرسو فيه. وما أن وضعوا مرساتهم حتى اندفع الكثير من المغاربة والأتراك لسفينتهم في أعداد كبيرة [٤٧].

وعودة لوسيلة التواصل بين مراكز الإدارة المملوكية ونعني به الحمام الزاجل، فمن الجدير بالذكر أن مارتن بومجارتن أشار في موضع آخر أنه وأثناء وجوده في الإسكندرية، أخبرهم التجار أنه في المناسبات اللازمة يرسلون رسائل من الإسكندرية إلى القاهرة بواسطة الحمام إلى من هم مرتبطون بهم، ولذا فهم يطعموهم لهذا الغرض [٤٨].

وأوضح الرحالة اليهودي ميشولم بن ميناحيم أنه شاهد أدميرال الإسكندرية، وكان لديه حمام يرسله بالرسائل إلى السلطان وقتما يريد. إذ يربطها بالحمام أو يضعها في فمه ثم يطلقها لنافذة بيت السلطان بمصر (القاهرة)، حيث يكون هناك رجلا في انتظارها [٤٩].

والواقع أن دخول سفينة مارتن بومجارتن ميناء الإسكندرية لم تخل من حدث طارئ غير متوقع. إذ أشار مارتن بومجارتن لوصول جمالي Gamali القائد البحري للأسطول التركي للميناء قبلهم، حيث أنزل للشاطئ سفير تركي إلى السلطان [٥٠]، ثم وضع مرساته في منتصف الميناء. ولما كانت سفينة مارتن بومجارتن قد دخلت الميناء بشكل حماسي بمساعدة رياح جيدة، اعتقد الأتراك معه أنهم يفعلون ذلك بشكل متعمد، فحملوا أسلحتهم وصاحوا بقوة لإبعادهم. وعندما فهم الأتراك من صيحات ركاب سفينة مارتن بومجارتن حقيقة الموقف، وخوفا من قوانين الميناء، أدركوا أنه من الأفضل تركهم لحالهم. وفي ظل هذه الظروف وضعت السفينة التي تحمل مارتن بومجارتن مرساتها، بيد أن من عليها لم يحصلوا إلا على قسط ضئيل من النوم تلك الليلة لإزعاج الأتراك لهم بضجيج أحدثوه بآلات موسيقية، وبصيحاتهم التي يبدو أنهم كانوا يلعنونهم فيها ويطالبوهم بالعودة، في الوقت الذي التزم فيه طاقم السفينة البندقية وركابها الهدوء [٥١].

وبهذا الشكل رصد لنا مارتن بومجارتن في هذه الرواية أمر هذه السفارة العثمانية، التي ذكر ابن اياس بشأنها في شهر جمادى الأولى سنة ٩١٣هـ (سبتمبر سنة ١٥٠٧م) " وفي تاسع عشره حضر إلى الأبواب الشريفة شخص يقال له كمال من خواص جماعة ابن عثمان، وقد ترجموا هذا كمال بتراجم عظيمة بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد

---

(47) Jean Thenaud, Op. Cit., pp. 20 – 1.

(48) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 437.

(49) Meshullam Ben R. Menahem, Op., Cit., p. 162.

(٥٠) عن طبيعة العلاقات بين دولة المماليك والدولة العثمانية بصفة عامة، وزمن قانصوه الغوري بصفة خاصة، وتأرجحها ما بين السلمية والعداء. انظر: نعيم زكي فهمي (دكتور): المرجع السابق، ص ٢٣– ٣٣.

(51) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. ٤٣٦.

في الفرنج ليلا ونهارا حتى أعتى الفرنج أمره، وإنه رأس المجاهدين المرابطين في الإسلام، فلما حضر أكرمه السلطان وبالغ في إكرامه وأخلع عليه، فأقام بمصر مدة يسيرة ورجع إلى بلاده" [٥٢].

وتابع ابن إياس إنه وفي جمادى الآخرة سنة ٩١٣ هـ (أكتوبر١٥٠٧م) "وفي يوم الإثنين حادي عشره أخلع السلطان على قاصد أبي يزيد بن عثمان خلعة سنية، وألبس جماعته سلاريات وشهقا وصمورا وأذن لهم بالعودة إلى بلادهم. فمضوا وهم شاكرون من السلطان" [٥٣].

وهكذا، فسرت رواية ابن إياس ما جاء عند مارتن بومجارتن عن السفارة العثمانية للسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ . ١٥١٢م) إلى السلطان قانصوه، ووصولها للإسكندرية في نفس اليوم الذي وصلت السفينة التي تقله إلى الإسكندرية. وأن السفينة التي قادها أمير البحر التركي الذي أطلق عليه مارتن بومجارتن جمالي، وسماه ابن إياس كمال نقلت هذه السفارة إلى الإسكندرية. ومنها توجه كمال ومعه السفارة إلى القاهرة، حيث استقبله السلطان الغوري وكرمه ثم سمح له بالعودة، في حين بقيت السفارة في القاهرة حتى استقبلها السلطان الغوري في جلسة استماع، ثم كرم أفرادها وأذن لهم بالعودة لبلادهم.

وأيا كان الأمر، فلم يكن الدخول إلى ميناء الإسكندرية بالأمر اليسير دائما، وكان يحتاج إلى مهارة ملاحية، وهو ما أظهرته رواية الرحالة اليهودي ميشولم بن ميناحيم سنة ١٤٨١م. إذ كان ربان السفينة التي نقلته للإسكندرية قد قتل أثناء الرحلة البحرية قبل وصولهم للإسكندرية. فلم يكن هناك من مناص سوى اختيار أحد البحارة للقيام بمهمة الرسو بالسفينة في ميناء الإسكندرية عند الوصول إليها يوم الأربعاء السادس من يونيو. وكانت النتيجة جنوح السفينة في الأرض وتحطمها تقريبا. إلا أن الجنوية المقيمين بالإسكندرية عندما وصلت لمسامعهم صيحات الاستنجاد هبوا لنجدتهم بسفينة أخرى. ونجحوا بواسطتها بعد محاولات مضنية من سحب السفينة الجانحة بحبال سميكة جدا مما علقت فيه، وتعويمها مرة أخرى وإبعادها عن شاطئ المدينة بنحو نصف ميل. وفسر ميشولم بن ميناحيم ما حدث بأن الإسكندرية صخرية، ولا تستطيع السفن الكبيرة الاقتراب من المدينة، ولكن الله أنقذهم ذلك اليوم من هذا الخطر العظيم الذي وقعوا فيه [٥٤].

٧- التقاليد المرعية في استقبال الشخصيات الهامة، والسفارات الأجنبية عند وصولها بحرا للإسكندرية:

---

[٥٢] ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٩.

[٥٣] نفسه: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٢.

[54] Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 157 -8.

ومهما يكن من أمر، وكما سجل لنا مارتن بومجارتن، فعند شروق شمس صباح اليوم التالي (١٠ سبتمبر سنة ١٥٠٧م)، هبط لشاطئ المدينة تغري بردي سفير السلطان الذي جلبوه معهم على طول الطريق من البندقية إلى الإسكندرية [٥٥]. ولقد احتشد حوله كل شباب المدينة لرؤيته وتقديم احترامهم له. وقدم حاكم المدينة مع حشد ضخم من فرسان المماليك، وجمع ضخم جدا من الناس محدثين بطبولهم وآلاتهم ضجيجا وصفه مارتن بومجارتن بغير المريح، واستقبلوه بكل عظمة. ووصل كذلك قنصل البندقية الحامي لجميع رعايا البندقية في تلك الأنحاء والقاضي بينهم، مصحوبا بعدد ضخم من القوارب مزينة بفخامة ومزودة بشرائط ملونة وبأبواق، ليكون في استقبال تغري بردي ورافقه للشاطئ. وقدمت كل السفن الموجودة بالميناء التهنئة لتغري بردي بسلامة الوصول بإطلاق عدد لا حصر له من المدافع، وملأوا الجو بالصياح والنار والدخان وضجيج رجالهم [٥٦].

وليس أدل على المكانة التي كان يحظى بها تغري بردي الترجمان سفير قانصوه الغوري لأوروبا يومها، من وصف قانصوه الغوري له في مرسوم أصدره لأعوانه في الثاني والعشرين من شهر جمادى من شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٣هـ، " المجلس السامي الأميري الكبيري العضدي الذخري الأوحدي الأكملي السيفي تغري بردي الترجمان القاصد أدام الله سعده" [٥٧].

ويبدو أن هذه المكانة قد ازدادت كما يدل على ذلك نعت قانصوه الغوري له في مرسوم آخر بتاريخ الثاني من يوليو سنة ١٥٠٩م "المجلس العالي الأميري الكبيري المجاهدي المؤيدي الذخري النصري الأوحدي الأكملي الأعزي الأخصي السيفي عمدة الملوك والسلاطين تغري بردي أحد أعيان أمراء العشرات بالديار المصرية والترجمان بأبوابنا الشريفة أدام الله سعده" [٥٨].

وإذا كان مارتن بومجارتن قد قدم لنا وصفا لاستقبال شخصية محلية مهمة حال وصولها للإسكندرية بحرا، فقد سجل لنا جان ثينو الذي كان أحد أفراد السفارة الفرنسية للسلطان قانصوه الغوري سنة ١٥١٢م من ناحيته وصفا لاستقبال الشخصيات الأوروبية المهمة، أورد فيه أنه ومع دخول سفينتهم للميناء أتي لاستقبالهم أمير الإسكندرية وهو

---

[٥٥] عن ذلك ذكر ابن إياس ضمن أحداث جمادى الأولى سنة ٩١٣ هـ (سبتمبر سنة ١٥٠٧م)، "وفيه حضر تغري بردي الترجمان، وكان توجه إلى بلاد الفرنج وأقام فيها نحوا من سنتين، فلما حضر أخلع عليه السلطان وأقره على وظيفته". انظر: ابن إياس: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢١.

[56] Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 436.

[57] Michele Amari (ed.), I Diplomi Arabi del R. Archivio Fiorentino, Testo Originale con la Traduzione Letterale e Illustrazioni di Michele Amari, Firenze, MDCCCLXIII, pp. 219 – 20.

[58] Michele Amari (ed.), Op. Cit., pp. 224 – 225.

راكبا لحصانه بشكل حسن مصحوبا بالمماليك، وترجمانه اليهودي الذي تحدث معهم وطمأنهم وطلب منهم أن يشعروا بالأمان كما لو كانوا في فرنسا [٥٩].

وأمضت السفارة الفرنسية ليلها في سعادة في فندق القطلان والجنوية. وتوجهت بعد ذلك لمنزل فيليب دو بيرتيز Philippe de Pertez قنصل القطلان، حيث أُعدت لهم مائدة حافلة بالأسماك الشهية والحلويات والفواكه والخمر. وفي اليوم التالي أرسل الأمير للسيد السفير فرانسوا دو بونجيان maistre Françoys de Bonjehan هدايا من الأسماك والفواكه، آملا في أن يحصل في المقابل على هدية أكبر كما هي العادة في تلك البلاد وفق قول جان ثينو. وأضاف، وعلى الرغم من أن هديته لم تكن تزيد عن ست دوكات، إلا أن السفير أهداه قماش، وزيت، وعسل، وجبن، وشمع، بما تقرب قيمته من مائتي دوكات، مما أسعد أمير الإسكندرية [٦٠].

أما السفير الإيطالي دومينيكو تريفيزان فقد أورد بشأن استقبال سفارتهم، أنه عند وصول سفينتهم أمام الإسكندرية في يوم السادس عشر من أبريل سنة ١٥١٢م، ألقت مرساتها على مبعدة ميلين. وفي اليوم التالي وصلت إلى الميناء سفينتان مذهبتان ومزينتان ومغطيتان بالمخمل وستارة قرمزية للبحث عن السفير. وتم اصطحاب السفير إلى الأرض حيث أُعدت جياد لركوبه ومعيته في الميناء. وكان في استقباله أمير الإسكندرية والدويدار متبوعا بعدد ضخم من الفرسان والمشاة. وركب السفير ومن معه سبعة خيول، يتقدمهم السفير بمفرده، وتبعه رجاله في أزواج، اثنين يليهم اثنين. ودخل السفير المدينة والأمير على يمينه، وكانت الشوارع مليئة بالناس. في الوقت الذي غُطيت فيه أقواس مداخل فندقي البندقية بقماش قرمزي. وتوجه السفير ومعيته إلى مقر إقامة الأمير. وعندما وصلوا إلى هناك، انفصل الأمير عن السفير الذي دخل على جواده إلى القصر، في حين بقي الوفد منتظرا في فناء مفتوح. وانتظر الأمير السفير في رواق صغير على سجادة مبسوطة على مصطبة، في الوقت الذي وُضعت فيه مصطبة خارج الرواق للسفير. وقبل تبادل الحديث، تم اعداد مكان للسفير قبل وصوله للأمير. ثم جلس السفير، وقدم للأمير خطاب من دوج البندقية، قام بفتحه وتمت قراءته بواسطة سكرتير البنادقة، وتُرجم بواسطة الترجمان. ثم تبادل الاثنان كلمات الصداقة الشديدة. وبعدئذ استأذن السفير، وعاد مصحوبا بمعيته وكانوا عددهم كبير جدا نحو مقر الإقامة الذي خصص له [٦١].

(59) Jean Thenaud, Op Cit., p. 21.

(60) Ibid., Op Cit., p. 22.

(61) Domenico Trevisan, Op. Cit., pp. 171 – 3.

٨- الإجراءات الجمركية المتبعة في جمرك الإسكندرية:

وعودة لمارتن بومجارتن ورفقته فقد نزلوا بدورهم من على ظهر السفينة في اليوم الحادي عشر من سبتمبر سنة ١٥٠٧م، حيث حلوا بفندق بندقي بالإسكندرية. وجدير بالذكر أنهم وللإنفاق على ما قد يحتاجونه أحضروا معهم مبالغا مالية ضئيلة، ولكنهم بالإضافة لها جلبوا معهم صكوك مبادلة من البندقية. ومع ذلك فقد دفعوا مبلغاً معتبراً كمكسٍ لحراس جمرك المدينة من المسلمين الذين كانوا يقومون بتفتيش دقيق لزوار المدينة القادمين، على الرغم من نجاح مارتن بومجارتن ورفقته في إخفاء المبلغ الأكبر معهم داخل خنزير، لعلمهم بكونه أكثر ما يكرهه المسلمين. ولأنهم كانوا يشبهون التجار وليس الغرباء، كانت لديهم حرية مجانية للدخول والخروج من المدينة وقتما شاءوا. مما أتاح لهم مشاهدة معظم الأماكن المميزة في الإسكندرية مع مرشد بندقي [٦٢].

خريطة بيري ريس Piri Reis للإسكندرية وموانئها (النصف الأول من القرن ١٦م)

ومما يذكر في هذا المقام أن حيل زوار الإسكندرية من الأوروبيين كانت لا تتوقف في محاولة منهم للتهرب من دفع الضريبة المفروضة على ما يحملونه من أموال عند المرور ببوابة جمرك المدينة. فعلى الرغم من قيام ميشولم بن ميناحيم ومن معه بتخبئة أموالهم في نعالهم وعدم الاعلان عنها، إلا أن حرس الجمارك نجحوا في العثور عليها،

(62) Martin Baumgarten, Op Cit., p. 436.

وأمسكوا بهم. وبرغم ذلك لم يصادروها كلها، بل أخذوا منهم عشرة بالمئة فقط من إجمالي المبلغ، وأعادوا لهم بقيته. مما جعله يقول إنه من المستحيل عدم دفع الضريبة لعمال الجمارك، لأنهم يفحصون كل شخص حتى اليهود والنساء. وأضاف في موقع آخر، أنه وجب على الأوروبيين من المسيحيين دفع ثلاث عشرة دوكات Ducat عند دخول المدينة، كذلك فهم لا يستطيعون الخروج منها إلا إذا دفعوها. وأضاف أن اليهود لا يدفعون شيئا، بيد أنه إذا أراد يهودي مغادرة المدينة، كان عليه الحصول على إذن من أميرها [٦٣].

والواقع أنه وفي مقارنة الإجراءات الجمركية التي تعرض لها مارتن بومجارتن، مع مثيلتها التي اتخذت حيال وصول السفينة التي نقلت أرنولد فون هارف للإسكندرية سنة ١٤٩٧م، نجد أنه لم يُسمح لأي شخص ممن كان على متنها بالنزول إلى الميناء بعد رسوها بميناء الإسكندرية، باستثناء قائد السفينة والترجمان الذي كان مملوكيا ومن على شاكلته. ولقد ذهبا إلى أمير المدينة للحصول على أمان مجاني free conduct بصفتهم تجار بنادقة. ووجب على كل منهم دفع دوكتين ضريبة مرور بصفتهم تجار بنادقة، وهو المبلغ المعتاد الذي يدفعه التجار في مدن المسلمين (ذكرهم بالوثنيين) مقابل أمان المرور. ولقد دفع أرنولد فون هارف مبلغا مماثلا بعد ادعائه أنه قدم للمدينة تاجرا، في حين وكما ذكر كانوا سيأخذون منه خمس دوكات إذا عرفوا أنه قدم للمدينة كحاج. في الوقت الذي كان يتم فيه دفع ضريبة سلطانية مقدارها عشر دوكات من أي بضائع تبلغ قيمتها مئة دوكات يجلبونها أو ينقلونها [٦٤].

وأشار عوباديا جاريه دا بيرتينورو أن ملك (سلطان) مصر يُحصِل مبلغ عظيم من المال من ضرائب الاستيراد والتصدير على السلع، لأن الضريبة مرتفعة جدا. وحتى الأموال السائلة التي يتم احضارها، كان يجب دفع ٢% عليها. غير أنه سجل أنه لم يكن ملزما بدفع ضريبة دخول على المال، وعدم تعرض المهربين لأي عقوبة من قبل جامعي الضرائب المصريين [٦٥].

والواقع أنه لم يكن يتم اعفاء حتى السفارات الأجنبية من دفع رسوم وجمارك على ما كانوا يحضرونه معهم. إذ يذكر جان ثينو أنهم وبعد أن استقروا بمقر إقامتهم بالإسكندرية، تم نقل أمتعة وصناديق السفارة من الميناء لذلك المنزل بواسطة جملين، وذلك في مقابل خمسين دينار أشرفي ذهبي [٦٦] كما جرت بذلك العادة. ولقد قام رجال الجمارك بفحص هذه الصناديق لجمع رسوم الدخول للسماح بدخولها [٦٧].

---

(63) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 158, 163.

(64) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 93.

(65) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 223.

[٦٦] **الدينار الأشرفي:** عملة ذهبية تعود للقرن الخامس عشر الميلادي، سكت لأول مرة عام ١٤٢٥م في مصر المملوكية، وأطلق عليها هذا الاسم نسبة للسلطان الأشرف برسباي، وكانت تزن 3.45 جرام. والذي حل بنجاح محل الدوكات كعملة ذهبية

وأضاف جان ثينو في موضع آخر أن كل مَن يدخل إلى الميناء ومدينة الإسكندرية يأخذ منه السلطان مكوسا. ولهذا يتشدد الجمرك مع كل واحد، فيحصل السلطان على مائتي وخمسين ألف أشرفي ذهبي. غير أنه أضاف أنه كانت تتم الإساءة للمسيحيين (يعني الأوروبيين) في ذلك المكان (يعني الجمرك)، ورغم ذلك كانوا يتشوقون للعودة للمدينة لأنهم كانوا يكسبون أكثر من مئة في المئة من قيمة البضائع التي يتاجرون بها [٦٨].

وفصل الحسن بن الوزان الزياتي بشأن الإجراءات الجمركية بالإسكندرية، أنه "للمدينة شكل مربع، مع أربعة أبواب، أحدها يتجه نحو الشرق، من جهة النيل، والآخر نحو الجنوب، نحو بحيرة تدعى البحيرة، والثالث غربا من طرف صحراء برقة، والرابع نحو الجبهة الشمالية حيث يقوم الميناء وهو باب البحرية حيث يقوم الحراس، وموظفو المكس الذين يفتشون الناس حتى في سراويلهم لأن مكس هذه المدينة يتقاضى رسوما تبلغ نسبة مئوية معينة على الدنانير ذاتها كما لو كانت بضائع. هذا ويوجد أيضا قرب الأسوار بابان متصلان أحدهما بالآخر بواسطة شارع عريض، وقلعة منيعة جدا عند مدخل الميناء المسمى المرسى البرجي، أي ميناء البرج، وفيه ترسو أكثر السفن جمالا، وكذلك أكثرها أهمية كمراكب البندقية والسفن الجنوية والراقوزية، وكذلك المراكب الأوربية الأخرى، وتشاهد عادة في الإسكندرية سفن قادمة حتى من الفلاندر، وانكلترا، وبيسكاي، والبرتغال ومن كل السواحل الأوربية ولكن أكثرها عددا هي السفن الإيطالية ولاسيما سفن بوليا وصقلية، وكذلك سفن اليونان، أي التي تأتي سوية إلى هذا الميناء كي تكون في مأمن من القراصنة ومن العواصف، وهناك ميناء آخر يدعى ميناء السلسلة حيث ترسو السفن من بلاد البربر، ومن جربة ومن أمكنة أخرى" [٦٩].

أولى في سلطنة المماليك حتى نهايتها. ويذكر محمد أبو الفرج العش أن الدينار المملوكي بصفة خاصة وزنه غير ثابت، ولو أنه في أكثر الأحيان، يكون بين ٣ – ٣.٥ جرام ذهب. ومن الملاحظ في سك النقود المملوكية هو إصدار دنانير مضاعفة، مرتين وثلاث وأربع مرات وزن الدينار المعتاد. إذ يوجد دينار وزنه 16.85 جرام ذهب. وللمزيد من التفاصيل، انظر: محمد أبو الفرج العش: مصر . القاهرة، على النقود العربية، بحث ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس . أبريل، ١٩٦٩، ثلاثة أجزاء، القاهرة (مطبعة دار الكتب)، ١٩٧٠ . ١٩٧١م، الجزء الثاني، ١٩٧١م، ص ٩٦١. وكذلك:

Bacharach, J. L., Op Cit., pp. 77 – 96.

(67) Jean Thenaud, Op Cit., p. 22.

(68) Ibid., Op Cit., p. 27.

[٦٩] الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٧١.

٩- وصف موانئ الإسكندرية وقلعتها:

كان ميناء الإسكندرية أول ما يطالعه الزائر القادم للمدينة بحرا، ولقد فصل مارتن بومجارتن بالنسبة للميناء (٧٠) أنه بديع، وليس من السهل الدخول إليه حتى في فترة السلم. لأن الدخول إليه ليس مباشر، لتعرجه (لالتوائه) بسبب الصخور، والأحجار الكثيرة الموجودة والمختفية تحت مياهه. وجانبه الأيسر مغلق بحاجز أمواج صناعي (٧١). وعلى يمينه جزيرة فاروس، التي وجد فوقها برج وقلعة يحملان ذلك الاسم. ويعد هذا البرج قديما، وواحدا من عجائب الدنيا السبع، وكان مرتفعا جدا لدرجة رؤية البحارة لنور قمته من مسافة أربعين ميلا، وبواسطته كانت السفن تهتدي للأرض. وداخل الميناء آمن جدا ومساحته حوالي ثلاثة أميال ونصف. وإليه كانت تجلب كافة أنواع البضائع التي تحتاجها مصر من كل أجزاء العالم. ومنه كذلك، كانت مصر تصدر للعالم بضائعها، والبضائع التي تأتي إليها من أنحاء مختلفة من العالم بعد استيفاء احتياجاتها (٧٢).

لوحة للإسكندرية وميناءها في رحلة شارل ماجيوس Charles Magius سن ١٥٧٨م

(المكتبة الأهلية – باريس)

(٧٠) لمزيد من الإجراءات التجارية والجمركية التي كانت تتم في ميناء الإسكندرية راجع: نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ٣١٢ – ٣١٨.

(٧١) للمزيد من التفاصيل عن قلعة قايتباي، وحاجز أمواج الميناء الجديد أو الميناء الشرقي، وبرجه، راجع: السيد عبد العزيز سالم (دكتور): تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة)، ١٩٨٢م، ص ٤٥٦، ٤٥٨ . ٤٦٩.

(72) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 437.

وبدوره وصف ميشولم بن ميناحيم قلعة الإسكندرية بالجميلة التي لم يسبق له أن رأي قلعة مثلها على الرغم من أنه تم بنائها منذ ثلاثة أعوام، وهي تحتوي على ثلاثة وعشرين برجا، وبين كل برج وآخر حائط سمكه عشرة أذرع، والحائط يحيطهم كالتاج من ناحية جانب المدينة. وينام بالقلعة كل يوم ثمانمائة مملوك يرتدون قبعات حمراء على رؤوسهم وعصي في أيديهم. وبالقرب من القلعة يوجد عشرين مسجد (٧٣).

وأشاد أرنولد فون هارف بضخامة الميناء وبالقلعة، وبأن لها سور مزدوج يمتد منها للأرض، وهو محصن بستين برج قوي. وأشار لبنائها حديثا على يد السلطان قايتباي الذي ذكره باسم Katubee. ونوه إلى أن من بها أطلقوا عددا من ضربات المدفعية على شرف البنادقة عند وصول السفينة التي تقلهم، وأنهم فعلوا بالمثل من على متن سفينتهم. في حين زاد فرانسيسكو سيريانو في هذا الشأن أنه كان للمدينة قلعة يقيم أمير بحر admiral بداخلها (٧٤).

أما فرانسيسكو سيريانو فقد أورد أنه للمدينة مينائين، أحدهما يسمى الميناء القديم وهو واسع وقوي للغاية، ولا يسمح لأي سفينة مسيحية بدخوله، والآخر واسع وحسن بشكل كبير. وأضاف والآن بني السلطان مدخلا قويا للغاية للميناء، بينما وجدت قلعة في مكان يسمى الفنار (المنارة) Phare أو Pharaoh، حيث ومن قديم كانت هناك انارة كل ليلة لأمن وسلامة السفن التي تستقدم للميناء. وكان بالإمكان رؤية الضوء من أعالي البحار. وكانوا يفعلون ذلك لأن أرض مصر أكثر انخفاضا من البحر. وأكد دومينيكو تريفيزان نفس المعلومة وذكر أن المدينة تملك ميناءين الأفضل منهما يدعى الميناء القديم ودخوله ممنوع على السفن المسيحية، والميناء الثاني يسمى بالجديد، ويتم الدفاع عنه بواسطة القلعة المزودة بالمدفعية والتي لا تسمح للسفن بالرحيل منه إلا بعد الحصول على الإذن من السلطان. وأشار لضيق مدخله الذي لا يكاد يزيد عن مدخل قوس السهام (٧٥). ولعل في ذلك كناية عن شدة ضيق المدخل

وأشار جان ثينو لوجود ميناء قديم بالقرب من الإسكندرية، لا يسمح المسلمون (يعني سلطات المدينة) للمسيحيين (يعني الأوروبيين) بدخوله، لأنهم يقولون إنه تم غزو بلادهم من المسيحيين من خلاله. وأنه أمام المدينة يوجد قلعة (سماها الفنار الصغير Pharillon)، وتسمى كذلك برج فاروس، وكان يعد في السابق أحد عجائب الدنيا السبع القديمة، وكانت نيرانه تُرى في السابق ليلا من مسافة ثلاثين ميلا من البحر. وكانت في الماضي جزيرة، ولكنها أصبحت اليوم جزء من الأرض. وانفرد جان ثينو بروايته عن أنه يوجد داخل هذه القلعة أمير من جانب السلطان لا يسمح لأمير الإسكندرية بدخولها. فضلا عن أنه وبناء على إرادة السلطان لا يسمح بتموين هذه القلعة لأكثر من يومين خشية استيلاء أي من أعدائه عليها (٧٦).

---

(73) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 158.

(74) Arnold von Harff, Op. Cit., pp. 92-3; Francesco Suriano, Op. Cit., p. 198.

(75) Francesco Suriano, Op. Cit., p. 198; Domenico Trevisan, Op. Cit., pp. ١٧٤ - 5.

(76) Jean Thenaud, Op. Cit., p. 23.

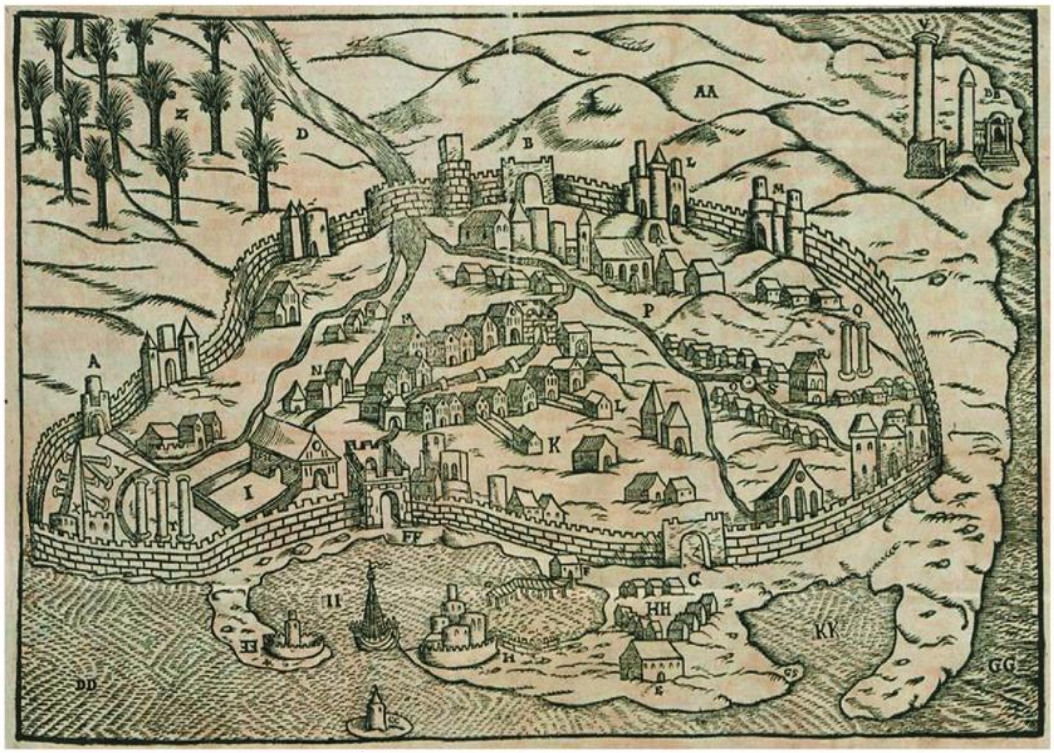

خريطة يوهان هيلفريش Johann Helffrich للإسكندرية وموانئها وقلعتها سنة ١٥٦٦م

وإلى جانب هذين الميناءين، كانت بعض السفن تنتظر لبعض الوقت في ضاحية أبي قير التي كانت تبعد ثمانية عشر ميلا عن مدينة الإسكندرية، أحيانا بسبب الرياح المعاكسة، وانتظارا لرياح مواتية للإبحار، أو في بعض الأحيان حتى تحصل على أمان مرور من أمير الإسكندرية بالرسو في مينائها. ووصف عوباديا جاري دا بيرتينورو شاطئ أبو قير بالواسع، وأن مياهه ضحلة، ولذا ألقت سفينته مرساتها على مبعدة أربعة أميال من الشاطئ، في الوقت الذي ألقت فيه السفينة التي نقلت دومينيكو ترافيزان الذي وصف أبو قير بالمرسى الحسن، المليء بالشعب المرجانية، بمرساتها على مسافة خمسة أميال منه [٧٧].

١٠- وصف الإسكندرية ومنشآتها المدنية:

وصف مارتن بومجارتن الإسكندرية بالمدينة الأعظم في مصر، وأن من بناها على ساحل البحر المصري هو الإسكندر الأكبر، ولذلك حملت اسمه. ولكنه أخطأ بحوالي عقد من الزمان في تاريخ تأسيسها، عندما حدده بثلاثمائة وعشرين عاما قبل ميلاد السيد المسيح بدلا من ثلاثمائة واحدى وثلاثين عاما قبل الميلاد. وأضاف أنها

(77) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 218; Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 170.

تحوي قبره الذي قدم يوليوس قيصر تقديره له. وأنها محاطة بصحراء واسعة وميناء، وأنهار ومستنقعات بها شجيرات [٧٨].

والواقع أن ما عناه مارتن بومجارتن من عبارته الأخيرة، لم يكن إلا تعيينا لحدود المدينة الأربعة وطبوغرافيتها زمن زيارته لها. فمن المؤكد أنه أراد بالصحراء حد الإسكندرية الغربي، وبالميناء حدها الشمالي، أما الأنهار فقصد به حدها الشرقي من حيث تأتيها مياه النيل، وبالمستنقعات حدها الجنوبي. وبهذا الشكل جاء ذكر مارتن بومجارتن لوجود مستنقعات تحيط بالمدينة إشارة منه لبحيرة مريوط، والتي أوضح إتيين كومب Etienne Combe بشأنها أنها لا تظهر على خرائط الرحالين في العصور الوسطى، وإغفالهم تماما ذكرها؛ فخريطة برنارد فون برايدنباخ في القرن الخامس عشر الميلادي على سبيل المثال لم تشر لأي بحيرة [٧٩]. وإن كان يجب ذكر ما قاله ليو الأفريقي سنة ١٥١٧م من أن أحد أبواب المدينة الأربعة وهو باب الجنوب كان نحو بحيرة تدعى البحيرة [٨٠]، وهو ما يؤكد ما ذهب إليه مارتن بومجارتن.

وبمقارنة رواية مارتن بومجارتن تلك مع العديد من روايات الأوروبيين الذين زاروا المدينة في تلك الحقبة الزمنية، نجد ميشولم بن ميناحيم يقارن اتساعها بمدينة فلورنسا Florence، في حين أورد أرنولد فون هارف أن الملك العظيم الإسكندر أول من شرع في بناء الإسكندرية، ومن هنا حملت اسمه. وحذا حذوه الإيطالي دومينيكو تريفيزان. أما الحسن بن الوزان الزياتي، فقد أضاف " لقد تأسست الإسكندرية، كما هو معلوم من قبل الإسكندر الكبير الذي بناها وفق مخطط مشاهير المهندسين المهرة في موقع بديع، فوق رأس يتقدم في البحر المتوسط على مسافة أربعين ميلا إلى الغرب من النيل [٨١].

---

(78) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 436.

(٧٩) لمزيد من التفاصيل عن بحيرة مريوط والتطورات التي طرأت عليها عبر العصور، انظر خريطة برنارد فون برايدنباخ بالبحث، وأيضا: الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٧١. وراجع كذلك: إتيان كومب: سكندريات إتيان كومب، الجزء الأول، مقالات طبوغرافية وتاريخية وأثرية عن مدينة الإسكندرية في العصور الوسطى، تصدير أ.د مصطفى الفقي، تحقيق وتعليق د. حسام عبد الباسط، ترجمة أ. د. ندية عارف، مشروع مكتبة الإسكندرية للترجمة، الإصدار (٤)، الإسكندرية، ٢٠٢٠م، ص ٨١ – ٨٦.

(٨٠) الحسن بن محمد الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٧١.

(٨١) انظر: الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٧٠. وكذلك:

Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 159; Arnold von Harff, Op. Cit., p. 96; Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 173.

لوحة براون وهوجيبيرج Braun & Hogenberg للإسكندرية سنة ١٥٨٨م

ووصف ميشوليم بن ميناحيم المدينة، بالكبيرة حسنة البناء، وأسوارها بالعالية والحسنة. وكل المدينة جافة للغاية، وبها حطام الكثير من المباني [٨٢]. أما مواطنه عوباديا جاريه دا بيرتينورو الذي زار المدينة بعد ست سنوات من زيارته، فقد أورد عنها أنها مدينة ضخمة جدا، مسورة ومحاطة بالبحر، وثلثي المدينة مدمر [٨٣].

واعتقد أرنولد فون هارف أن مدينة الإسكندرية أصغر قليلا من مدينة كولونيا الألمانية. وسجل أنها مدينة خربة ممتلئة بكل أشكال المباني الساقطة في معظم نواحيها من الداخل. ولكن لا يزال لها أسوار حسنة، وأبراج وخنادق وفقا للطريقة الأوروبية، بُنيت عندما كانت مدينة مسيحية. وأن على استدارة المدينة توجد حدائق متماثلة وجميلة مع منازل صيفية ممتعة، وفيها تنمو كميات عظيمة من الفواكه النادرة مثل البرتقال والليمون والتمر والتين

(82) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 160.

(83) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 222.

والموز، وغيرها. في حين قدر فرانسيسكو سيريانو Francesco Suriano محيط المدينة بستة أميال ونصف، وبأنها كانت لا تزال محاطة بالأسوار والاستحكامات. وأنها وعلى الرغم من أنها كانت مدينة شهيرة وملكية في الماضي، إلا أنها كانت تقريبا مخربة كلية وغير مسكونة وقت زيارته لها. وقدر بعد المدينة بتسعين ميل من القاهرة، ومسيرة يوم من رشيد تلك المدينة التي تمثل أحد مصبات النيل على البحر المتوسط. أما السفير الإيطالي دومينيكو تريفيزان فقد ذكر عن الإسكندرية سنة ١٥١٢م أن طولها أكبر من عرضها، وأنها خربة بنسبة كبيرة بشكل لم يشهد له مثيلا سوى مدينة كانديا Candie، فقد كانت تسعة أعشار المدينة خربة، وفسر هجر السكان لمدينتهم ومنازلهم لطغيان السلطات [٨٤].

وأرجع جان ثينو تأسيس الإسكندرية إلى الإسكندر، وأبدى إعجابه بجمالها وضخامتها وقوة أسوارها، وأصاب القول في سبب الدمار الذي كانت عليه، في حين أخطأ فيمن قام بتدميرها في عبارته: ولكنها مدمرة كلية من الداخل منذ حملة جاك دو لوزينيان Jacques de Lusignan. وعدد منازل المدينة بحوالي ألفي منزل [٨٥].

وأوضح مارتن بومجارتن أن بالإسكندرية قنوات لسحب المياه من النيل للكثير من المنازل الخاصة [٨٦]. ومن خلالها كانت المياه تنقل للمنازل [٨٧]، حيث كانت تستقر وتتحول لمياه نقية في بضعة دقائق، ليستخدمها أرباب

---

[84] Arnold von Harff, Op. Cit., pp. 93-4; Francesco Suriano, Op. Cit., p. 198; Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 173.

[85] Jean Thenaud, Op. Cit., p. 23 - 24.

[٨٦] يذكر الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال بشأن هذه القنوات المائية والصهاريج "وكانت بحيرة مربوط تحد المدينة من الجنوب، وهي بحيرة داخلية عذبة المياه، وكانت تصلها بالفرع الكانوبي ترعة شيديا القديمة (كانت تقوم مقام ترعة المحمودية، أو الخليج الناصري في العصور الوسطى) التي تصب في البحر، وفي ميناء كيبوتوس الداخلية؛ وكان يتفرع منها فرع يسير على وجه التقريب في مجرى ترعة الفرخة الحالية (يقوم مقامها الآن شارع قنال السويس . الباحث)، ويخترق المدينة ليصب في الميناء الشرقي؛ ومصورات المدينة في العصور الوسطى تبين فروعًا أخرى صغيرة لهذه الترعة كانت تتخلل المدينة لإيصال المياه الحلوة إلى مختلف أنحائها، وتشير المراجع أن هذه الفروع كانت قنوات تحتية تحمل الماء إلى صهاريج البيوت. وذكر علماء الحملة الفرنسية انه كان بالمدينة وقت وجودهم بها حوالي ٣٠٠ صهريج صالحة للاستعمال، وقد كشف الفلكي باشا أثناء قيامه بحفائره في سنة ١٨٧٢م عن ٧٠٠ صهريج منها". في حين يقول الدكتور عبد العزيز سالم في وصفه لعمران الإسكندرية في العصر المملوكي "وكان يخترق الثغر خليج ممتد يأتي من النيل ويصب في البحر غربي المدينة، وتتفرع من هذا الخليج بداخل المدينة شبكة مائية في باطن الأرض تروي الدور والبساتين". انظر: جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص ١٥، ٢٧؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ٤٢٨، ٥٠٩ . ٥١٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها، ص ٣٨ . ٤٠.

العائلات وأطفالهم والخدم. وأوضح أن تلك المياه التي تجلب من النيل كانت مليئة بالوحل والطين الذي يؤدي لأمراض كثيرة لمن يشربونها. غير أن الفقراء كان يستخدمونها بسرور، لأنه لم يكن هناك أي نبع عام في كل المدينة [٨٨].

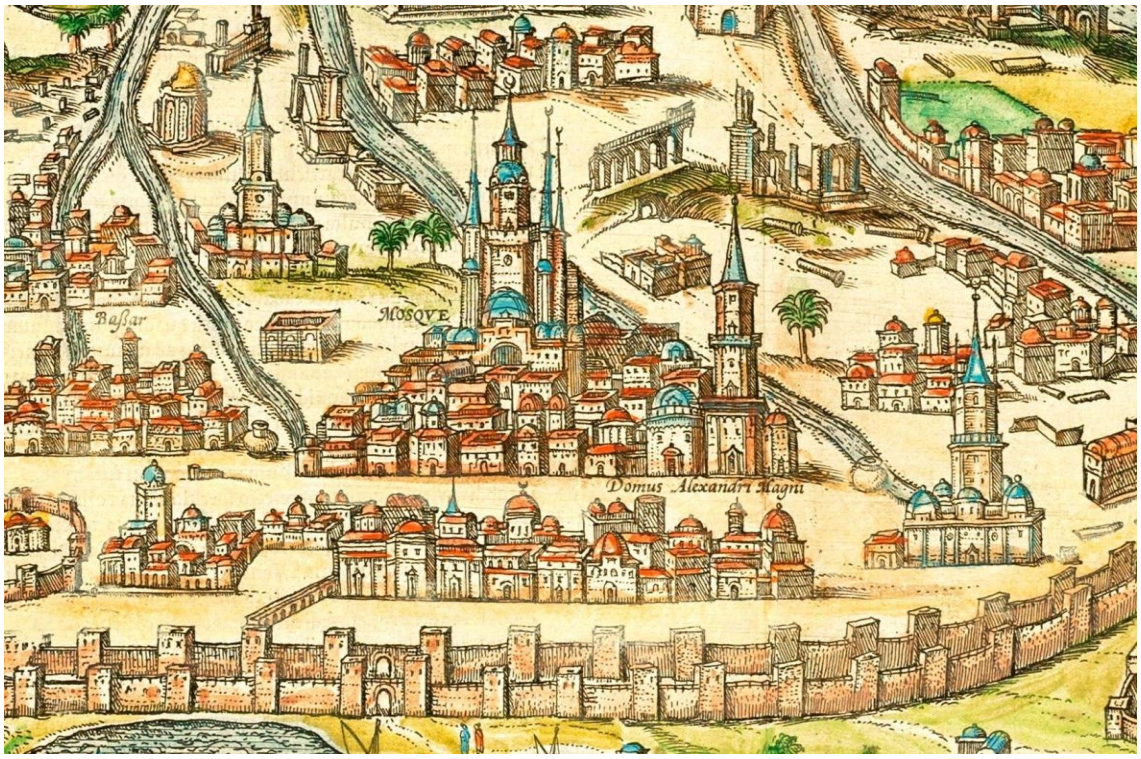

لوحة للإسكندرية في النصف الثاني من القرن ١٦م، تظهر فيها القنوات المائية العذبة

وجاء عند ميشولم بن ميناحيم أن منازل الإسكندرية جميلة، ويوجد في كل منها فناء مبلط بصخور بيضاء مغروس به شجرة، وحوض ماء بوسطه. وفي كل منزل صهريجين، أحدهما للمياه الجديدة، وثانيهما للمياه القديمة. فعندما يرتفع النيل كل عام في شهر أغسطس تملأ المياه الإسكندرية، وتمتلئ برك المياه وتملأ الصهاريج [٨٩].

واتفق وصف عوباديا جاري دا بيرتينورو مع مواطنه ميشولم بن ميناحيم في أن كل منازل الإسكندرية واسعة وجميلة، بيد أن الكثير منها غير مسكون. أما الأفنية المسكونة فهي مبلطة بالموزاييك، وفي وسطها أشجار الخوخ ونخيل التمر [٩٠].

---

(٨٧) لمزيد من التفاصيل عن منازل وقصور الإسكندرية في العصر المملوكي، راجع: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ٤٨٣ . ٤٩٢.

(88) Martin Baumgarten, Op., Cit., pp. 436 – 7.

(89) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 160.

ولقد قُدر للإيطالي دومينيكو ترافيزان رؤية قصر أمير الإسكندرية، ولكن كل ما ذكره عنه أنهم دخلوا إلى فناء عظيم مفتوح للسماء، وكان الأمير منتظرا للسفير في رواق صغير جالسا على سجادة مبسوطة على مصطبة. وتم وضع مصطبة خارج الرواق للسفير. ولم يزد دومينيكو تريفيزان عن قصر الأمير. غير أنه بمقارنة ما ذكره عن المقر الذي خصص لإقامة السفير في الإسكندرية يجعلنا نتخيل كيف كان ثراء، وحال منازل علية القوم في الإسكندرية في تلك المرحلة الزمنية من تاريخ المدينة. فقد ذكر أنه كان منزلا من أجمل منازل المدينة، وقدر قيمة المنزل بأكثر من سبعين ألف دوكات. إذ كانت أرضيته مغطاة بموزاييك الرخام، والحجر الزجاجي، وغيرها من الصخور القيمة. أما أبوابه فقد كانت محلاة بالأبنوس والعاج، وكوصفه كان كل باباً منه يساوي في قيمته آباراً من الذهب، واحتوى المنزل على أكثر من ستين بابا. وأوضح أن طريقة إنشاء المنزل مختلفة كلية عما يشاهد في إيطاليا. إذ لا توجد به نقاط مذهبة في الداخل، وإنما منحوتات ورسوم في لون زرقة البحر [٩١].

مع ما تقدم، ذكر فرانسيسكو سيريانو أن الإسكندرية حتى الآن، أي مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وبرغم خرابها لاتزال مدينة مبهجة بحدائقها، وفواكهها الوفيرة، ولكن لا يوجد بها كروم أو رمان [٩٢]. ومع ذلك يبدو أن مناخ الإسكندرية لم يكن يجذب الكثيرين لسكناها نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين. إذ أنه ولما كان وصوله للإسكندرية قد وافق شهر يونيو، لم يرق مناخ المدينة لميشولم بن ميناحيم في تلك الفترة فسجل أن هواءها سيئ جدا في شهور يونيو ويوليو وأغسطس. وأرجع سبب ذلك، لأن الريح السيئة التي تسمى borea تثور وتهاجم الناس كالطاعون، أو تجعلهم أعمياء، ولا يستطيعون الرؤية كلية خمسة أو ستة أشهر في السنة. ولذلك وفي الإسكندرية يوجد الكثير من ذوي العيون المريضة. أما علية القوم في الإسكندرية فكانوا يذهبون خلال ذلك الفصل إلى أماكن أخرى، ولا يبقون في الإسكندرية [٩٣]. وأكد عوباديا جاري دا بيرتينورو قلة سكان المدينة نتيجة سوء الجو الذي يسودها منذ سنوات كثيرة. وأنه يقال إن غير المعتادين على هذا الجو ويبقون طويلًا في الإسكندرية، يموتون أو يسقطون مرضى على الأقل، ومعظم السكان يمرضون في أعينهم [٩٤]. وكان الرأي عند فرانسيسكو سيريانو أنه لولا كمية المتاجر العظيمة التي تصل للإسكندرية والتي تجعل منها ميناء القاهرة، لأصبحت خاوية كلية بسبب فساد هوائها [٩٥].

---

(90) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 222.

(91) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 173.

(92) Francesco Suriano, Op. Cit., p. 198.

(93) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 160.

(94) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 222.

(95) Francesco Suriano, Op. Cit., p. 198.

أما فيما يتعلق بمصادر المياه في الإسكندرية التي نوه عنها مارتن بومجارتن، نجد أرنولد فون هارف قد سجل أن الإسكندرية مدينة نادرة الأمطار، ولكن المياه تغطي جميع الأراضي في موسم فيضان النيل. ولا يوجد في الإسكندرية مياه حلوة، ولذلك عندما تمطر يخزنون مياهها في صهاريج. في الوقت الذي فصل فيه الإيطالي دومينيكو تريفيزان أن جزء كبير من المدينة مبني تحت الأرض. وأنه يوجد مكان تحت الأرض على مبعدة خمسة عشر ميل من المدينة يتم تخزين المياه فيه عندما يفيض النيل في شهر يونيو، ومن ثم تنقل في مجاري تحت الأرض لمختلف أنحاء المدينة، ليتم استخدامها طوال العام. وأصاب كبد الحقيقة بقوله إنه بدون فيضان نهر النيل تستحيل الحياة في هذه البلاد لأنها لا تمطر إلا نادرا [٩٦]. وأورد جان ثينو إن المدينة محفورة كلية ومليئة بالصهاريج لحفظ الماء الذي يأتيها عندما يفيض النيل. ولولا تلك المياه لكانت المدينة قد فقدت [٩٧]. وأخبر دومينيكو ترافيزان أن جزء كبير من المدينة مشيد فوق أنفاق [٩٨].

وتؤيد رواية الحسن ابن الوزان الزياتي ما ذهب إليه مارتن بومجارتن بخصوص الصهاريج والقنوات المائية بالإسكندرية، إذ يقول " وكل منازل الإسكندرية مبنية فوق صهاريج ماء ذات قناطر تقوم فوق أعمدة وأقواس. ويصل نهر النيل حتى هذه الصهاريج. وفي الحقيقة يصل الماء على أثر الفيضان بواسطة قناة اصطناعية محفورة في السهل، من النيل حتى الإسكندرية حيث يدخل بعد مروره من تحت سور المدينة كي تصب في الصهاريج" [٩٩].

واستكمل مارتن بومجارتن وصفه للإسكندرية بأنها بدت مدينة رائعة في ذلك الوقت. ومن الخارج كانت أسوارها مرتفعة وعظيمة الاتساع، مبنية بشكل محكم وحسن ومقام فوقها الكثير من الأبراج [١٠٠]. ولكن من الداخل لم

---

[96] Arnold von Harff, Op. Cit., p. 96; Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 175.

[97] Jean Thenaud, Op. Cit., p. 24.

[98] Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 174.

[٩٩] الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٧٢.

[١٠٠] يرى الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم أن سور الإسكندرية الشمالي الممتد ما بين باب البحر والباب الأخضر على الأقل إن لم يكن سور المدينة كله، كان مزدوجا أي يتألف من سورين، وكان محيط سور المدينة يتراوح ما بين ١٠ كيلو متر، و١٥ كيلو متر. انظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ٤٣٧ . ٤٤٤؛ السيد عبد العزيز سالم: تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانه، ص ٤١.

يكن هناك شيئا يرى باستثناء كومة هائلة من الأحجار. وكان من النادر رؤية شوارع ممتدة [١٠١]، غير أنه وُجد بها ساحات (أزقة) وأفنية واسعة، وبعض البيوت إجمالا [١٠٢].

ولما كان أستاذنا الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم يذكر أن شوارع المدينة ظلت مستقيمة، تتقاطع فيما بينها عمودياً، على شكل رقعة الشطرنج حتى عصر المماليك الجراكسة، أي حتى الزمن الذي زار فيه مارتن بومجارتن المدينة [١٠٣]، تصبح رواية مارتن بومجارتن وروايات الأوروبيين المؤيدة لها، ذات دلالة خاصة في إظهار مدى الدمار الذي كانت عليه المدينة وقت زيارته لها سنة ١٥٠٧م.

والواقع، أن مارتن بومجارتن لم يفسر سبب الخراب الذي ظهرت عليه مدينة الإسكندرية يومها، إلا أن ميشولم بن ميناحيم حدد السبب في الحطام والخراب الذي ظهرت عليه الإسكندرية من الداخل بسبب الحرب التي دارت بين ملك قبرص والسلطان. والتي استولى خلالها على المدينة وحكمها لما يزيد عن الثلاث سنوات وفق قوله، وبعدها هاجم سلطان مصر ملك قبرص وحرق المدينة وأسر ملك قبرص [١٠٤].

ومع ما تقدم، يجب القول إن ميشولم بن ميناحيم وإن كان قد أصاب عندما حدد حملة بطرس دو لوزينيان ملك قبرص على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م سببا لدمار المدينة، وانتقام سلطان مصر الأشرف برسباي لاحقا على هذا الجرم بثلاث حملات انتهت بأسر جانوس لوزينيان ملك قبرص. ولكنه أخطأ فيما سجله من أنه استولى خلال الحملة على المدينة وحكمها لمدة ثلاثة أعوام. إذ لم تستغرق هذه الهجمة على المدينة سوى بضعة أيام من شهر أكتوبر سنة ١٣٦٥م، استباحها وجنده خلالها، فصدقت عليه رواية النويري السكندري أنه دخلها لصا وخرج منها لصا [١٠٥].

---

[١٠١] أورد الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم أن المدينة كانت تتخللها عند إنشائها شبكة من الشوارع المستقيمة المرصوفة بالبازلت تتقاطع فيما بينها، سبعة تمتد طولا في موازاة الساحل، واثنى عشر شارعا تقطعها عرضا من الشمال إلى الجنوب. وكان يخترق وسط المدينة بطولها من شرقها إلى غربها شارع يعرف بالكانوبي، ويتفق تخطيطه الآن مع شارع أبي قير (طريق الحرية) وامتداده في شارع فؤاد، أما الشارع العرضي الذي يقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب ويقطع الطريق الكانوبي في وسطه، فهو شارع السيما، وهي كلمة تعني المقبرة، لوجود قبر الإسكندر الأكبر به، ويغلب الظن أن موضعه الآن هو شارع النبي دانيال. السيد عبد العزيز سالم: تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانه، ص ٤٣.

[102] Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 437.

[١٠٣] السيد عبد العزيز سالم: تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانه، ص ٦٩.

[104] Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 161.

[١٠٥] لمزيد من التفاصيل عن حملة بطرس لوزينيان على الإسكندرية وما أحدثته من فظائع بالإسكندرية، وهو ما ترك آثاره على المدينة حتى زيارة مارتن بومجارتن لها، وحملات الأشرف برسباي الثلاث على قبرص، انظر: النويري الاسكندراني (محمد بن

وأضاف مارتن بومجارتن أنه حيث كان يوجد قصر الإسكندر في السابق، توجد للآن مسلة منصوبة من الرخام الأحمر الصلب، مساحتها أحد عشرة كف مربع في أسفلها، وبارتفاع رائع ينتهي بقمة حادة. وكانت بأكملها من القمة للقاع مليئة بأشكال مخلوقات حية، وأشياء أخرى تظهر بوضوح أن القدماء استخدموها كبديل عن الحروف. وأضاف أن البعض يقول إن مسلة روما في ميدان القديس بطرس حيث تحفظ بها عظام يوليوس قيصر Julius Ceasar، كانت تقف في القديم في الإسكندرية إلى جانب تلك المسلة، ولكن مسلة الإسكندرية تتجاوزها في الارتفاع والضخامة [١٠٦].

وأورد فرانسيسكو سيريانو أن المسلة توجد في ساحة، وأنها تشبه تلك الموجودة في ميدان القديس بطرس في روما، إلا أنها تفوقها جمالا فكلها مؤرخة بصور بارزة [١٠٧]. في حين ذكر جان ثينو أنه بالقرب من منزل الأمير هناك هرم (يعني مسلة) أكثر ارتفاعا من ذلك الذي يوجد في ميدان القديس بطرس في روما. وعليه توجد نقوش الكثير من الشخصيات والطيور والحيوانات وفق القواعد القديمة للحروف المقدسة في مصر [١٠٨].

وانفرد أرنولد فون هارف بالقول بوجود عمودين من الرخام الأحمر عظيما الارتفاع، كانا على مبعدة اثنا عشرة خطوة الواحد من الآخر، وكان موقعهما بالقرب من الآلة المزودة بالسكاكين التي استشهدت بها القديسة كاثرين [١٠٩].

قاسم بن محمد النويري الاسكندراني المتوفي بعد سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م): كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، ج١، تحقيق د. إيتيين كومب، د. عزيز سوريال عطية، حيدر آباد الدكن (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية)، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص ٥١، ٩٣، ١٠٠. وكذلك: سهير محمد إبراهيم نعينع (دكتور): الحروب الصليبية المتأخرة، حملة بطرس الأول لوسينيان الصليبية على الإسكندرية ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ، القاهرة (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية)، ٢٠١٠م، ص ١٥٥ – ١٩٩.

(106) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 437.

(107) Francesco Suriano, Op. Cit., p. 198.

(108) Jean Thenaud, Op. Cit., pp. 24 – 25.

(109) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 94.

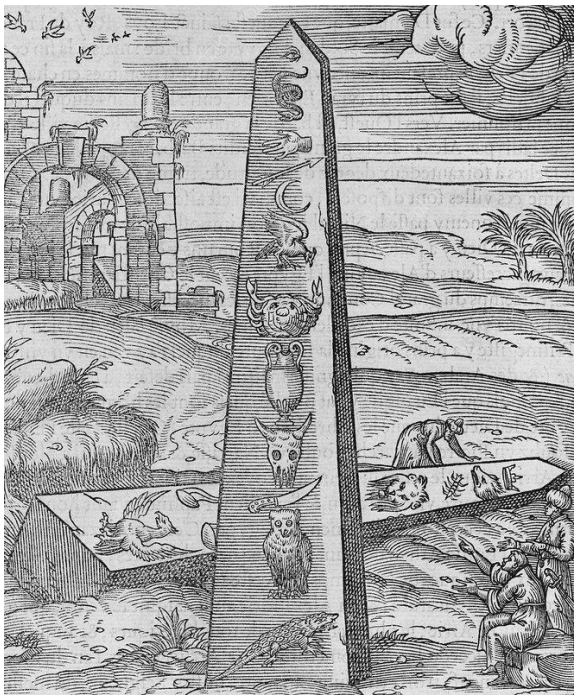

رسم من سنة ١٥٧٥م لمسلتي الإسكندرية

وإلى جانب هذه المسلات داخل المدينة، ذكر أرنولد فون هارف وجود عمودين كذلك من الرخام الأحمر خارج المدينة، وكانت أحداهما ساقطة على الأرض [١١٠]. وهو ما يتفق كذلك مع ما سجله فرانسيسكو سيريانو بدوره

[١١٠] اشتهرت المسلتان بإبر كليوباترا، كونها تشبه الإبر العملاقة. ولقد أنشأهما فراعنة الأسرة الثامنة عشر الفرعونية. وهي تحتوي على نقوش باسم تحتمس الثالث، فضلا عن علامات أضيفت إليها من قبل رمسيس الثاني. وخلال حكم البطالمة في زمن كليوباترا، تم نقلهما من معبد رع في هليوبوليس بالقرب من القاهرة الحالية، إلى الإسكندرية لتزيين معبد القيصريون Caesareum الذي شرعت كليوباترا السابعة في بنائه تكريما لزوجها أنطونيوس، ثم أُكمل بناؤه بعد فتح الرومان لمصر تكريما للإمبراطور أوغسطس. وظلت المسلتان بعد زوال المعبد قرابة الألفي عام في منطقة الميناء الشرقي بالإسكندرية، حيث يقوم الآن ميدان سعد زغلول بمنطقة محطة الرمل. إلى أن منح محمد علي باشا والي مصر إحداها إلى إنجلترا. ولكنها بقيت في الإسكندرية، حتى نقلت إلى لندن سنة ١٨٧٧م، ليتم وضعها في مدينة لندن بالقرب من نهر التايمز في منطقة فيكتوريا إمبانكمنت Victoria Embankmentd. في حين منح حاكم مصر الخديوي إسماعيل المسلة الثانية للولايات المتحدة الأمريكية، لتنقل إليها لاحقا بخطاب من ابنه الخديوي توفيق سنة ١٨٧٩م، حيث وضعت سنة ١٨٨١م، في حديقة سنترال بارك Central Park أكبر حدائق مدينة نيويورك. راجع: إيتيان كومب، المرجع السابق، ص ١٢٠؛ جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص ١٨، ٢٣.

من وجود عمودين من الرخام الأحمر أحدهما ساقط على الأرض، ولكنه أضاف أن موقعهما كان خارج المدينة. وكذلك إشارة الإيطالي دومينيكو تريفيزان للمسلتين وأن أحدهما كانت قائمة، والأخرى على الأرض [١١١].

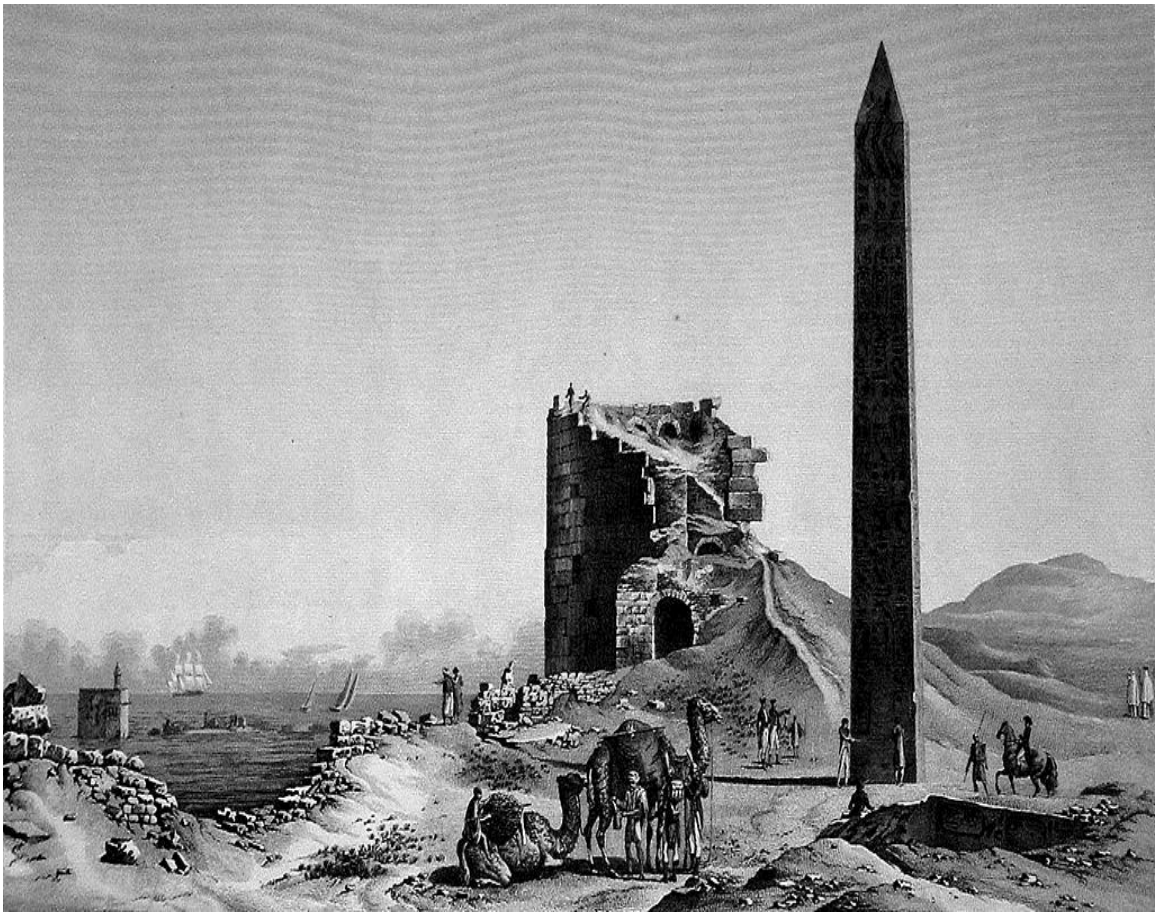

مسلتا الإسكندرية . لوحة للحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م

ولعل ما سبق يفيد بوجود مسلة داخل المدينة، وهي التي أشار إليها مارتن بومجارتن وعدد من الأوروبيين. فضلا عن مسلة ثانية أو عمود ذكرها أرنولد فون هارف، بالإضافة لمسلتين خارج المدينة لم يأت على ذكرهما مارتن بومجارتن، وربما لم تتح له رؤيتهما، وإن جاء وصفهما على لسان العديد من زوار المدينة من الأوروبيين.

(111) Arnold von Harff, Op. Cit., pp. 94 – 5; Francesco Suriano, Op. Cit., p. 198; Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 174.

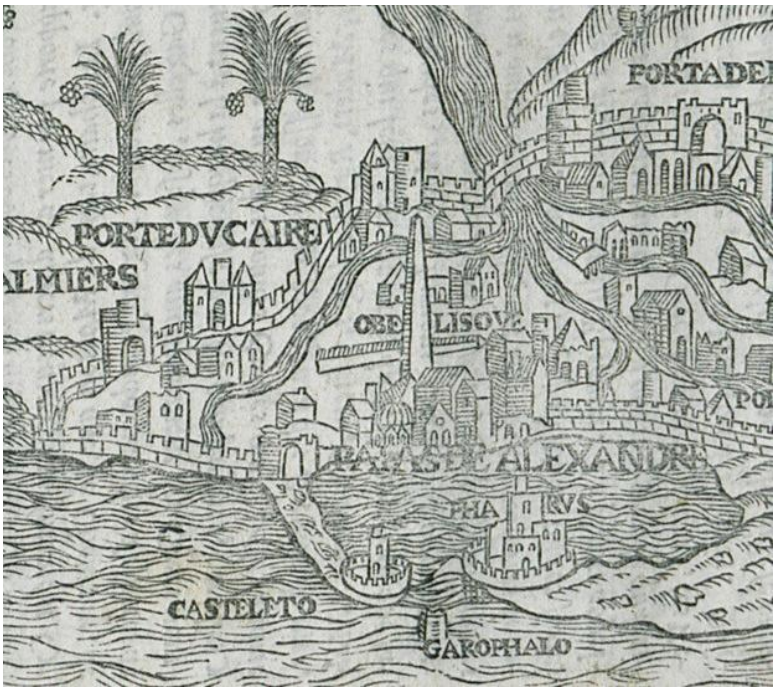

خريطة بيلون Belon سنة ١٥٥٤م تظهر مسلتي الإسكندرية

احداها قائمة والأخرى ساقطة

وذكر مارتن بومجارتن وجود تلين صناعيين مرتفعين جدا داخل المدينة [١١٢]، كان المرء يستطيع رؤية السفن من فوق قمتهما من مسافات عظيمة. وفي بعض المناسبات كانوا يرسلون رسائل بأخبارها من الإسكندرية للقاهرة بواسطة الحمام الزاجل إلى من كان يربيها لهذا الغرض [١١٣]. وأورد أرنولد فون هارف بشأن موقع التلين، أن أحدهما وُجد في وسط المدينة، في حين كان ثانيهما في أحد أركانها، وكان أعلى من الأول. وفوق كل منهما، أقيم برجًا مربعًا تواجد به مراقب لملاحظة السفن القادمة تجاه المدينة. وكان المراقب يضع أعلاما أعلى البرج بعدد السفن القادمة، فيرسل أمير المدينة في الحال رسله مع أقفاص الحمام الزاجل لمرافقة السفن المقتربة، كما سبق ووصف الحال عند اقتراب سفينته من المدينة [١١٤]. وعبر عنهما جان ثينو بوجود جبلين صناعيين صغيرين للإعلام عمن يأتون في البحر. ودون دومينيكو تريفيزان أن التلين كانا يعرفان بالعامية جبال الأطلال [١١٥].

---

[١١٢] المقصود بهذين التلين، كوم النظورة أو الناضورة، والآخر كوم الدكة. راجع: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ٤٥٦ . ٤٥٧.

[113] Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 437.

[114] Arnold von Harff, Op. Cit., p. 94.

[115] Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 174.

أما الحسن بن الوزان الزياني فقد ذكر أمر تل صناعي واحد في المدينة فصل عنه ما مفاده "ويقوم في داخل المدينة تل عال يشابه تل تستكشيو في روما، وفي الواقع هو عبارة عن تل اصطناعي. ويقوم فوق هذا المرتفع برج صغير حيث يقوم راصد على الدوام لمراقبة السفن التي تمر. ويتقاضى عن كل سفينة يخبر عنها موظفي المكس جمالة معينة، وإذا نام أو راح يتروض أو وصل مركب دون أن يخبر عنه موظفي المكس، يحكم عليه بغرامة تبلغ ضعف جمالته، وتدفع هذه الغرامة لخزينة السلطان" [١١٦].

١١- ضواحي الإسكندرية:

أوضح مارتن بومجارتن فيما يتصل بضواحي المدينة، أنه خارج أسوار المدينة، يمكن رؤية عمود بومبي Pompey [١١٧]، وارتفاعه ستين ذراعا، ويقال إن رأسه موضوعه تحته [١١٨].

والواقع أن المنطقة التي نُصب فيها العمود كانت تقع جنوب المدينة حيث ضمت بعض المزارع وأطلال معبد السيرابيوم إلى جانب بعض الآثار الرومانية التي يشرف عليها العمود، باتت مهجورة بعد الفتح الإسلامي للمدينة، فأخرجها والي مصر أحمد بن طولون من نطاق سور المدينة عند إعادة بنائه في عهده في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي ([١١٩]).

وبدوره تحدث فرانسيسكو سيريانو عن العمود، وعن ضخامته، وعن وجوده خارج المدينة بالقرب من سورها، وأضاف أنه كان يوجد أعلاه تمثال المعبود الذي كان يعبده ماكسنتيوس Maxentius. وأشار كذلك دومينيكو تريفيزان للعمود بعمود بومبي وأن رأسه قطعت هناك، ووجوده خارج أسوار المدينة [١٢٠].

---

[١١٦] الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٧٢.

[١١٧] لمزيد من التفاصيل عن هذا العمود، ونسبته بشكل غير صحيح لغير الإمبراطور دقلديانوس Decoletian (٢٨٤ . ٣٠٥م) الذي أقيم العمود سنة ٢٩٢م، تخليدا لذكرى زيارته للمدينة، والروايات والأقاويل التي دارت حوله ومسمياته، ومحاولة سرقته، ومنطقة كوم الشقافة الحالية التي ينتصب بها العمود، والتي كانت تمثل الحي الوطني للسكان الأصليين منذ إنشاء المدينة، راجع، إتيان كومب: المرجع السابق، ص ١١٢ – ١٢٠، جمال الدين الشيال: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ١٩، ٢٤، السيد عبد العزيز سالم: تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانه، ص ٤٩.

[118] Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 437.

([١١٩]) عن السور الذي أمر بإنشائه أحمد بن طولون، راجع، السيد عبد العزيز سالم: تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانه، ص ٧٤ . ٧٦.

[120] Francesco Suriano, Op. Cit., 197; Domenico Trevisan, Op. Cit., p.١٧٤ .

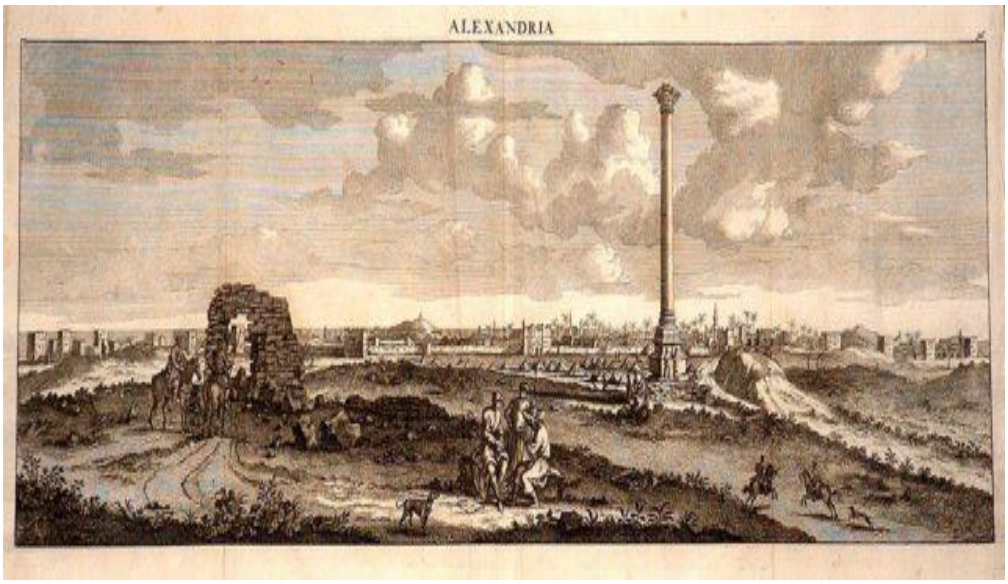

مشهد لعمود السواري وفي الخلفية مدينة الإسكندرية سنة ١٦٨١م .

بريشة الرحالة والرسام الهولندي كورنيليوس دو بروين Cornelius de Bruyn

مشهد عمود السواري .

بريشة الرحالة والرسام الإسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts سنة ١٨٣٨م

وفسر الحسن بن الوزان الزياتي بخصوص العمود أنه "على مسافة ستة أميال تقريبا من المدينة، من ناحية الغرب، توجد أبنية قديمة جدا منها عمود ضخم للغاية وشديد الارتفاع يحمل اسما عربيا هو عمود السواري. ونجد

مكتوبا في المؤلفات التي تكتب عن عجائب العالم في زمن الاسكندر أن فيلسوفا يدعى بطليموس بناه لتأمين سلامة المدينة تجاه العدو"[١٢١]. وتجب الإشارة إلى أن كليهما قد جانبه الصواب فنسب العمود لغير صاحبه، فقد بُني العمود سنة ٢٩٢م تخليدا لذكرى زيارة الإمبراطور دقلديانوس للمدينة.

أما جان ثينو من ناحيته، فكان الوحيد الذي انفرد من بين المصادر التي تم الرجوع إليها بذكر وجود عمودان مميزان خارج المدينة، أحدهما وضع فيه بطليموس جثمان الإسكندر في وعاء من الذهب، وأمر بأن يكون قبره بجواره، وعلى العمود الاخر وضع بومبي قائد قيصر [١٢٢].

ولعل إشارة مارتن بومجارتن عن خارج مدينة الإسكندرية، يجعلنا نحاول تلمس صورة عما كان عليه شكل ضواحي المدينة الخارجة عن أسوارها في روايات غيره من الأوروبيين. إذ تحدث جان ثينو عن وجود الكثير من الحدائق المليئة بالفواكه وأعشاب الطعام، وشتلات، ونبات السنط، والنخيل حول المدينة [١٢٣]. في حين نفي دومينيكو تريفيزان، تواجد ضواحي سكنية للمدينة خارجها، وإن قد سجل توفر بعض الغابات الصغيرة حيث يتم جمع الكابر Câpresالذي يسمى كابر الإسكندرية خارج أسوارها [١٢٤].

وأوضح جان ثينو أنهم عندما غادروا بوابة الإسكندرية، ساروا في طريقهم لمكان به شجر نخيل جميل، قريب من أبو قير حيث أمضوا ليلتهم [١٢٥]. ووصف دومينيكو ترافيزان منطقة أبو قير Bechieri التي وجدت على مبعدة ثمانية عشر ميلا من الإسكندرية حيث بقيت فيها سفينتهم عدة أيام، بالمنطقة غير المسكونة، وأرضها رملية، ويوجد بها عدد ضخم من أشجار نخيل التمر. وشاهد بها على أحد رؤوس الأرض برج مرتفع لم يكن به أحد. ورأى في حقول مجاورة أناس كانوا مشغولين بقطع نباتات الأعلاف الناضجة [١٢٦].

وأضاف دومينيكو تريفيزان في موضع آخر أنه لم يشاهد من الإسكندرية حتى رشيد سوى الرمال، باستثناء ضواحي الإسكندرية التي كان يرى بها العديد من الملاحات، حيث كانت المياه تتحول إلى ملح بفعل الحرارة الشديدة. وأنهم أحصوا خمس وأربعين ألف ملاحة من الإسكندرية حتى رشيد [١٢٧].

---

[١٢١] الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٧٢.

[122] Jean Thenaud, Op. Cit., p. 26.

[123] Ibid., Op. Cit.,Loc. Cit.

[124] Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 175.

[125] Jean Thenaud, Op. Cit., p. 28.

[126] Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 178.

[127] Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

١٢- المنشآت الدينية بالإسكندرية:

ذكر مارتن بومجارتن بشأن المنشآت الدينية بالإسكندرية، أنه لا تزال تُرى فيها حتى الآن العديد من الكنائس المسيحية، من بينها كنيسة القديس سابا St. Saba التي يمتلكها اليونانيين Greeks. وفي مكان آخر هناك كنيسة القديس مرقص St. Mark، التي يُقال إنها الأولى التي بُشر فيها بالإنجيل في تلك الأنحاء. وفيها رأى مارتن بومجارتن جرن معمودية قالوا عنه إنه تم تعميد القديس مرقص فيه. وخلف مذبح تلك الكنيسة وُجدت مخطوطات قديمة تحوي أعمال بطاركة الإسكندرية أثناسيوس Athanasius، وكيرلس Cyrillus، وإيرنيوس Irenaeus وغيرهم الكثير. وكانت كلها متعفنة وأكلتها العتة، وبعضها محترقا إلى حد كبير [١٢٨].

خريطة هنري دو بوفو Henery de Beauvau للإسكندرية سنة ١٦١٥م،

ويظهر بها موضع ضريح القديس مرقص برقم ٥، والقديسة كاثرين برقم ٩ [١٢٩]

وفيما يختص بهذه الكنائس، نجد فرانسيسكو سيريانو يشير لوجود كنيسة القديس سابا دون ذكر لتبعيتها، فضلا عن وجود كنيسة لم يرد ذكرها عند مارتن بومجارتن هي كنيسة القديس جورج St. George. وقال دومينيكو

(128) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 437.

(129) Henry de Beauvau, Relation Iournalière du Voyage du Levant, Nancy, 1615.

تريفيزان إنه يخدم بكنيسة القديس سابا اثنان من أخوة الدومينيكان [١٣٠]. وأضاف جان ثينو أن اللاتين كانوا يدخلون الضريح بكنيسة القديس سابا، بعد دفع رسم لأمير الإسكندرية. وبعد خلاف بين البنادقة والجنوية حولها، انتهى الأمر بشيوعها لكل اللاتين [١٣١].

ودون فرانسيسكو سيريانو عن كنيسة القديس مرقص أنها في المكان الذي قُطعت به رأس القديس مرقص، وفيه دُفن. وأنه تم سحله وجره على طول شارع عريض في المدينة يسمى شارع أبو قير Bucholi بواسطة ذيل حصان إلى المكان الذي أستشهد فيه بالطوب والأحجار. وأضاف جان ثينو بشأنها أنها كانت بحوزة الرهبان الفرانسيسكان. أما الحسن بن الوزان الزياتي فقد أتي على ذكر الكنيسة في إطار حديثه عن مدينة الإسكندرية بقوله" ولازال يوجد في الإسكندرية، بين سكانها القدامى، الكثير من أولئك النصارى الذين يدعون اليعاقبة. ولهم كنيسة خاصة بهم، وقد أعيد بناؤها عدة مرات، ولا تزال قائمة في أيامنا، وسبق أن دفن فيها جسد القديس مرقص الرسول الذي سرق غدرا عام ٨٢٩م على أيدي تجار بنادقة ونقل إلى البندقية". في حين أشار الفرنسي جان ثينو، والإيطالي دومينيكو تريفيزان إلى أن كنائس المدينة كانت ثلاث: كنيسة القديس سابا التي سبق الإشارة إليها، فضلا عن كنيسة القديس ميخائيل أو ميكائيل، وكنيسة القديس مرقص. وفي حين سجل جان ثينو أن كنيسة القديس مرقص كانت في حوزة الرهبان الفرانسيسكان، أشار دومينيكو تريفيزان أن كنيسة القديس ميخائيل وكذلك كنيسة القديس مرقص كانتا تابعتان لأخوة الفرانسيسكان [١٣٢].

وجدير بالذكر أن مارتن بومجارتن أغفل ذكر أي منشآت دينية غير مسيحية بمدينة الإسكندرية، غير أنه وبالرجوع للرحالة الإيطالي ميشولم بن ميناحيم نجده يشير لوجود عشرين مسجد بالقرب من قلعة المدينة [١٣٣]، وسجل أرنولد فون هارف وجود الكثير من المساجد الجميلة بالمدينة [١٣٤]. أما جان ثينو فقد ألمح أنهم حال اقتراب سفينتهم من الإسكندرية، لاح لهم فنار الإسكندرية، وجبالها وأبراجها ومساجدها، وأهرامها (يقصد مسلاتها) [١٣٥]. ولكن جان

---

(130) Francesco Suriano, Op. Cit., p. 197; Domenico Trevisan, Op. Cit., p.١٧٤ .

(131) Jean Thenaud, Op. Cit., p. 26.

(١٣٢) انظر: الحسن بن الوزان الزياني: المصدر السابق، ص ٥٧٣. وكذلك:

Francesco Suriano, Op. Cit., p. 197; Jean Thenaud, Op. Cit., p. 26; Domenico Trevisan, Op. Cit., p.١٧٤ .

(133) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 158.

(134) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 95.

(135) Jean Thenaud, Op. Cit., p. 20.

ثينو لم يصرح بأي شيء آخر عن تلك المساجد، بيد أنه من الواضح أنها كانت ضخمة ومنائرها مرتفعة بحيث كانت ترى من مسافات بعيدة للقادم إلى المدينة بحرا.

وذكر ميشولم وجود معبدين يهوديين أحدهما كبير والآخر صغير بالإسكندرية [١٣٦]. وفي حين أشار عوباديا جاري دا بورتينورو سنة ١٤٨٧م للمعبدين، أوضح أن المعبد الأكبر ضخم جدا، ولكنه مدمر بعض الشيء، ومن ثم كان يهود المدينة يصلون في المعبد الأصغر المسمى بمعبد النبي إلياهو (إلياس) Elijah. وكان اليهود يخلعون أحذيتهم بالخارج عند دخول هذه المعابد في الإسكندرية، ويجلسون جميعا على الأرض المغطاة بالبسط والسجاد على باب المعبد وداخله [١٣٧].

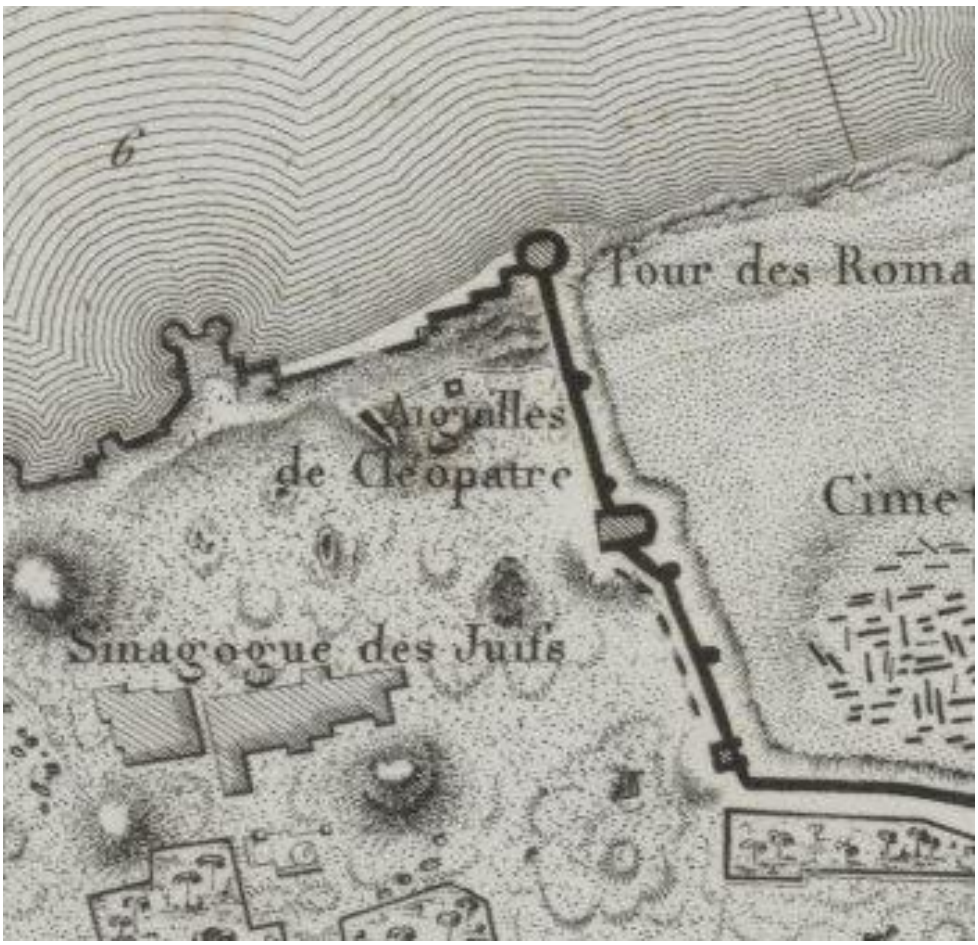

خريطة من سنة ١٨٠٧م للحملة الفرنسية على مصر تظهر موقع وتصميم

(136) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 161.

(137) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 222.

معبد اليهود الأصغر بالإسكندرية، بشارع النبي دانيال الآن

١٣- الأحوال الاجتماعية للمدينة:

تحدث مارتن بومجارتن بصفة عامة عن مجتمع الإسكندرية، ولعله يستبان من بين سطور يومياته، أن عدد سكان المدينة يومها كان قليلا ومرجع ذلك كان للخراب الذي لحق بالمدينة بعد غارة بطرس لوزينيان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م، وهو الأمر الذي لم تستعد بعده المدينة عافيتها حتى زمن زيارته لها. وأوضح أن سكان المدينة كانوا مزيجا اجتماعيا بين الأغنياء والفقراء، في عبارته أن بالمدينة قنوات لسحب المياه من النيل للكثير من المنازل الخاصة. وخلالها كانت المياه تنقل للمنازل حيث كانت تستقر وتتحول لمياه نقية في بضعة دقائق، ليستخدمها أرباب العائلات وأطفالهم والخدم. ولاحظ أن تلك المياه التي كانت تجلب من النيل مليئة بالوحل والطين الذي يؤدي لأمراض كثيرة لمن يشربونها، إلا أن فقراء المدينة كان يستخدمونها بسرور، لأنه لم يكن هناك أي نبع عام في كل المدينة" (١٣٨).

وتظهر يوميات مارتن بومجارتن أن المماليك مثلوا عنصرا أساسيا من بين الطبقات المميزة من سكان المدينة، ومنهم كان أمير المدينة وفرسانه، وإليهم عهد بأمور جمركها ومراقبة وفحص القادمين إليها براً وبحراً، وحراسة المدينة وميناءها وقلعتها، والتواصل الفوري مع السلطة المركزية عن طريق الحمام الزاجل (١٣٩).

وأكدت روايات الأوروبيين ذلك، إذ أوضح أرنولد فون هارف أن حاكم الإسكندرية يختاره السلطان من بين المماليك المتحولين عن المسيحية، ويُرسل من القاهرة إلى الإسكندرية ليحكمها (١٤٠)، وأشار جان ثينو أن أمير المدينة قدم لتحيتهم مصحوبا بمماليكه (١٤١). وفي حين ذهب مارتن بومجارتن ورفقته ومعهم بعض التجار البنادقة من الإسكندرية لرشيد في رفقة مملوك اتخذوه دليلا لهم (١٤٢)، ذكر دومينيكو ترافيزان أنهم اصطحبوا معهم من الإسكندرية إلى رشيد مماليك بغرض حراستهم (١٤٣).

وأوضح دومينيكو ترافيزان أنهم بقوا في الإسكندرية لفترة ولم يغادروها إلى القاهرة بسبب بعض قبائل البدو (١٤٤). وهو ما يشير لوجود هذه القبائل ضمن التركيبة السكانية للإسكندرية، وإن كانوا قد بقوا خارج أسوارها لا يقيمون بداخلها، على الخلاف من بقية عناصر المجتمع الأخرى.

---

(138) Martin Baumgarten, Op., Cit., pp. 436 – 7.

(139) Ibid., Op., Cit., pp. 436 – 438.

(140) Arnold von Harff, Op., Cit., p. 92.

(141) Jean Thenaud, Op Cit., p. 21.

(142) Martin Baumgarten, Op Cit., p. 438.

(143) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 177.

(144) Ibid., Op. Cit., Loc. Cit.

وأبانت يوميات مارتن بومجارتن أن مجتمع الإسكندرية المحلي كان مزيجا من المسلمين والمسيحيين. وإلى جانبهم شكلت الجاليات الأجنبية بدورها من المسلمين والمسيحيين، كالأتراك والأسيويين، والأوروبيين كالبنادقة والجنوية عنصرا أساسيا وثابتا من التركيبة السكانية للمدينة آنذاك (١٤٥). ومن بين هؤلاء البنادقة كان المرشد الذي رافق مارتن بومجارتن وصحبته أثناء جولاتهم بالمدينة (١٤٦).

وبدورها أظهرت رواية ميشولم إقامة عدد كبير من الجنوية بالمدينة سنة ١٤٨١م (١٤٧). وأشار جان ثينو لوجود جاليات أجنبية كالجنوية والقطلان، فضلا عن قنصل للقطلان كان مسئولا عن شؤون مواطنيه (١٤٨). في الوقت الذي رصد فيه دومينيكو ترافيزان تواجد أعداد كبيرة جدا من البنادقة بالمدينة سنة ١٥١٢م (١٤٩). وأشار مارتن بومجارتن لمرشد بندقي رافقهم في جولاتهم بالمدينة (١٥٠).

ولقد أكمل لنا ميشولم بن ميناحيم صورة مجتمع الإسكندرية الذي ذكره مارتن بومجارتن عرضا. إذ سجل وجود ستين أسرة من اليهود الربانيين فقط، لا يوجد بينهم يهود قرائين ولا سامرة بالمدينة وقت زيارته لها (١٤٨١م)، وكانت طريقة ملبسهم كالإسماعيليين (يعني أولاد إسماعيل أو المسلمين) وهم لا يرتدون أي أحذية، وبدون سراويل. واليهود يرتدون عمامة صفراء على رؤوسهم في كل أقاليم السلطان (١٥١). في حين حدد عوباديا جاريه دا بيرتينورو عددهم بخمس وعشرين أسرة فقط سنة ١٤٨٧م (١٥٢).

وكان الرحالة اليهودي ميشولم بن ميناحيم قد استعلم عن عادات أهل الإسكندرية، فوجدهم كما أخبرنا استثنائيين في أسلوب حياتهم. فنساء المدينة ترتدين نقاباً أسوداً على وجوههن به فتحات صغيرة تجعلهن ترين ما حولهن، في الوقت الذي لا يمكن لأحد رؤيتهن. كما تضعن على رؤوسهن غطاء رأس قطني مطرز ومزخرف، مطوي عدة طيات، وعليها نقاب أبيض يصل حتى كواحلهن ويغطي أجسادهن، كما ترتدين سروالا حتى الركبة. وخص نساء الأتراك بالقول بإن زوجات الأتراك تذهبن للبلانة (المزينة) مرة أسبوعيا.

وذكر ميشولم كذلك أن الإسماعيليين (يعني المسلمين) يجلسون باستمرار على بسط وسجاد. ويرتدون ملابساً بيضاء مع زنار (حزام)، ويصل ثوب الرجل إلى منتصف الفخذ، ويمشون بأرجل وسيقان عارية. والرجال لا يرتدون أي سراويل قصيرة، ولا يقصون شعورهم، ولكنهم يحلقون رؤوسهم بالموس دون غسل رأسهم باستثناء القليل من الماء.

---

(145) Martin Baumgarten, Op., Cit., pp. 436 – 438.

(146) Ibid., Op Cit., p. 436.

(147) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 157.

(148) Jean Thenaud, Op Cit., p. 21.

(149) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 173.

(150) Martin Baumgarten, Op Cit., p. 436.

(151) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 161, 163.

(152) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 222.

وأضاف ميشولم أنه عندما يتزوج الرجل يعطي زوجته مهرا. ويتكفل بعد الزواج بطعامها وشرابها، غير أنه يجب أن تشتري كسوتها بمالها، وعنما تنجب فهي ملتزمة بإطعامهم. ولا يلمس الرجل زوجته عندما تكون حُبلى. وهناك مسلمون يحصلون على عشرين من الأولاد والبنات سنويا. وهم لا يرتدون نعالا أبدا، ويأكلون على الأرض بدون غطاء، ولكن فقط على جلد أحمر، وينامون منحنون على أقدامهم وملابسهم، ولا يخلعون ملابسهم أبدا ليلا. وليس لديهم سريرًا أو منضدة أو مقعدًا أو مصباحًا، ولكنهم يأكلون ويشربون وينامون على الأرض فقط، وكل عملهم على الأرض. وجميعهم يركبون الحمير والبغال، فمن غير المسموح بركوب الجياد حتى للمسلمين إلا للمماليك. ويفعل اليهود مثل المسلمين في كل أراضي وأقاليم السلطان [١٥٣].

وأورد لنا الإيطالي عوباديا جاري دا بيرتينورو رواية عن تفاصيل وجبة عشاء يوم السبت دعاه إليها موسيس جراسو Mosses Grasso ترجمان البنادقة الذي أقام بمنزله طوال مدة اقامته في الإسكندرية، وكان يهوديا. ووصفه بأنه رجلا كريما ومحبوبا للغاية حتى لدي العرب. وذكر عوباديا جاري دا بيرتينورو عن ترتيب وجبة العشاء التي تناولها، أنه الترتيب المعتاد لليهود في كل البلدان العربية. وتابع وصفه لتفاصيل العشاء، فذكر أن موسيس جراسو دعاه وجميع اليهود السفارديم الذين قدموا معه من إيطاليا، لتناول العشاء معه وولديه في غرفة الطعام. وفيها جلسوا في دائرة على سجادة، بينما كان حامل الكؤوس واقفا. وبالقرب منهم بُسطت قطعة قماش على السجادة، ووُضع عليها كل أنواع الفاكهة. وكان المضيف يتناول كأسا من الخمر وهو يتلفظ بكلمات البركة، ثم يشربها كاملة. ثم كان حامل الكؤوس يوزع الكؤوس بالتتابع على جميع الحضور، ودائما ما يعيد ملئها عندما يفرغ الضيوف من شربها. وبعد ذلك كان المضيف يتناول حبتي فاكهة أو ثلاث ويأكل بعضها، ثم يشرب كأسا ثانية بينما الجمع يقول "بالصحة والحياة"، وكان من يليه يأخذ أيضا بعض الفاكهة ويأكلها ثم يأتي إليه حامل الكؤوس ويملأ كأسه، وهو يقول له "بالهناء"، ويشاركه الجميع بالقول "بالصحة والحياة"، ثم تدور الدورة. وبعد ذلك يتم تناول نوعًا آخر من الفواكه، وصب كأس آخر. ويستمر الأمر بهذا الشكل حتى ينتهي كل شخص من شرب ستة أو سبعة كؤوس من الخمر. وبينما هم يشربون الخمر التي عادة ما تكون قوية، كانوا يشمون زهور الياسمين التي تُجَهز لتلك المناسبة. وبعدما كان الجميع يشربون ملء قلوبهم، كان يتم احضار طبقاً ضخماً من اللحم، ليأخذ كل منهم بيده ما يشاء، ويأكله بسرعة. وبعد ذلك، أحضر موسيس جراسو لهم الحلويات، كالجنزبيل الطازج، والتمر، والزبيب، واللوز، وحلويات من حبوب الكسبرة، وكان يُشرب كأساً من الخمر مع كل نوع منها. وتبع ذلك شُرب خمر الزبيب، وخمر مالمسي Malmsey من كريت، ثم خمر محلي، ولقد شرب عوباديا معهم وكان مبتهجا [١٥٤].

(153) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 158 – 9.

(154) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., pp. 220 – 221.

وأضاف عوباديا أن عادة اليهود جرت في كل البلاد يوم الجمعة، بذهاب الجميع إلى الحمام. وفي طريق العودة، كانت نسوتهن تحضرن الخمر التي يشربوها بغزارة. ثم كانت تتم المناداة بعد ذلك بأن العشاء جاهز، ليأكلوه نهاراً قبل حلول المساء، ليذهب الجميع بعدها للمعبد وهم مغتسلين ومتأنقين في ملبسهم [١٥٥].

ولعل ما أورده لنا عوباديا جاري دا بيرتينورو عن موقف المسلمين من يهودي بندقي كان يعمل مترجما في الإسكندرية إنما هو خير تعبير عن حالة السماحة الدينية التي كانت تسود مجتمع الإسكندرية آنذاك. في حين تبرز تفاصيل وجبة العشاء المشار إليها لحياة شخص متوسط الحال بما لا يدع مجالا للشك، حالة الازدهار الاقتصادي والتجاري التي كانت تسود المدينة في أخريات الحكم المملوكي لها.

وأخيرا، يبدو أن وظيفة المترجم كان يتم اختيارها من بين اليهود لمعرفتهم باللغات، فقد أوضح جان ثينو بدوره سنة ١٥١٢م، أن ترجمان أمير الإسكندرية كان يهوديا [١٥٦].

١٤- فنادق الإسكندرية وأحوال المدينة الاقتصادية:

سجل مارتن بومجارتن فيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية بالإسكندرية، أن المرء يستطيع في تلك الأيام رؤية كميات عظيمة من مختلف أنواع البضائع التي تجلب من معظم أنحاء العالم. ويملك التجار البنادقة بالإسكندرية مستودعين (مخزنين) ممتلئين بكميات عظيمة من البضائع المنوعة، وكان يديرها القنصل، وكان صاحب سلطة عظيمة [١٥٧]. كما كان للجنوية أيضا، وللأتراك، وللأسيويين Scythians مستودعاتهم المتعددة، التي اهتم المسلمون بضرورة إغلاقها كل ليلة [١٥٨].

وكان ميشولم بن ميناحيم قد شاهد في الإسكندرية سنة ١٤٨١م، أربعة فنادق كبيرة للأوروبيين، أحدهم للفرنجة، والآخر للجنوية وقنصلهم، واثنين للبنادقة وقنصلهم. وقال بما لم يقل به مارتن بومجارتن من أنهم جميعا كانوا على يمين أحد الشوارع القريبة من بحر الإسكندرية. وفي مواجهتهم على الجانب الآخر منه وفي منتصفه، وُجد

---

(155) Ibid., Op. Cit., p. 221.

(156) Jean Thenaud, Op Cit., p. 21.

[١٥٧] يرجح أ. د جمال الشيال أن أماكن فنادق الأجانب في العصر الأيوبي، كانت تقوم داخل المدينة بالقرب من باب البحر الذي كان يطل على الميناء الشرقي مباشرة، مرسى سفنهم، أي حيث يقوم حي المنشية وشارع الميدان الحاليان. أما أ. د عبد العزيز سالم، فيذكر أن معظم قيساريات وأسواق مدينة الإسكندرية في العصر المملوكي، كان يتركز حول منطقة العطارين التي تؤلف قلب المدينة التجاري، والمنطقة المجاورة لباب البحر حيث يقع العدد الأعظم من الفنادق. وكذلك للمزيد عن النشاط التجاري للمدينة، راجع، جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص ٧٣ . ٧٤؛ السيد عبد العزيز سالم (دكتور): تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٦ . ٥١٩.

(158) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 437.

فندقا للمسلمين [١٥٩]. بما يعنيه هذ القول من أن جميع فنادق الإسكندرية على مختلف مشاربها خصص لها في تلك الحقبة شارعاً واحداً من المدينة بالقرب من الميناء، ولعله الشارع المركزي حيث دارت حركة التجارة الواردة إلى الإسكندرية والصادرة عنها.

وأوضح عوباديا جاري دا بيرتينورو أن التجار يأتون للإسكندرية من كافة الأنحاء. وفي الوقت الحاضر (يعني سنة ١٤٨٧م)، هناك أربعة قناصل من البندقية، وجنوة، وقطالونيا، وأنكونا. وعلى التجار من كافة الأمم التعامل معهم. والمسيحيون ملزمون بإغلاق بيوتهم على أنفسهم كل ليلة، ويقوم العرب (أي سلطات المدينة) بإغلاق الشوارع من الخارج عليهم ليلا، وفتحها لهم صباحا. وكان ذلك يحدث كذلك كل يوم جمعة من الظهر وحتى المساء، أثناء بقاء العرب في بيوت صلاتهم (يعني المساجد). وختم بهذا الخصوص أن من كان يظهر منهم كان عليه ألا يلوم سوى نفسه إذا ما تعرض لسوء معاملة [١٦٠].

هذا، ولقد أقام أرنولد فون هارف ورفقته أثناء وجودهم في الإسكندرية، شأنه في ذلك شأن مارتن بومجارتن، في فندق البنادقة Venetian Fondaco. وذكر عنه أنه بيت التجار، وأنه يوجد فندقان للبنادقة في المدينة يقيمون فيهما. ولقد أظهروا لهم في الفندق ترحابًا عظيمًا، وقدموا لهم الطعام والشراب مقابل دوكات واحدة في الأسبوع. وأوضح أن هذا الفندق أو بيت التجار يغلق من الخارج كل مساء بواسطة المسلمين (وصفهم بالوثنيين) ويفتحونها ثانية في الصباح الباكر [١٦١]. أما دومينيكو تريفيزان فقد أشار لفندقي البنادقة حيث أقام، وإلى أن بوابة الفندق الصغير كانت مزينة بالقطيفة القرمزية والنسيج الحريري [١٦٢].

وعدد أرنولد فون هارف فنادق الإسكندرية سنة ١٤٩٧م بست فنادق Fondachi أو منازل للتجار، كانت للبنادقة، والجنوية، والقطلان، والأتراك، والمغاربة Moores، والتتار Tartares. وأوضح أنه لكل منهم فندق واحد يجلبون إليه كميات عظيمة من المتاجر، ويتم بهم عمليات البيع والشراء. كما يبيعون أيضا بها وبشكل يومي، مسيحيين مأسورين من الأراضي المسيحية من الرجال والنساء والصبيان والبنات، بمبالغ صغيرة للغاية ما بين خمس

---

(159) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 162.

(160) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 223.

(161) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 93.

وراجع كذلك بشأن فنادق الإسكندرية والجاليات الأجنبية بها، ح. هايد: المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٠٣ – ٣٠٧؛ فاروق عثمان أباظة: المرجع السابق، ص ٢٦، ٢٩، ٣٦.

(162) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 172.

عشرة وعشرين وثلاثين دوكات بندقية وفق ما يقيمون. وكان المشترون يفحصون في البداية أطرافهم، وإذا ما كانوا أصحاء وأقوياء، أو مرضى أو مصابون بالعرج، أو ضعاف، ومن بعدها تتم عملية الشراء [١٦٣].

وذكر جان ثينو سنة ١٥١٢م، تواجد أربعة فنادق بالإسكندرية، منهما اثنين للبنادقة، والثالث للجنوية والرابع للقطلان. وفي هذه الفنادق يعيش التجار، وبها كنائس جميلة. وتغلق السلطات الإسلامية هذه الفنادق على التجار كل ليلة [١٦٤].

وفصل مارتن بومجارتن بشأن أوضاع التجارة الخارجية في الإسكندرية، أنهم وبينما كانوا في احتفال ذات يوم مع التجار بالإسكندرية، أخبرهم أحد البنادقة أنه في أحد الأعوام، كسبت سفينة من أبوليا Apulia محملة بالبندق عشرة آلاف كراون Crowns. وبإرسال سفينة محملة بالقسطل (الكستناء) إلى طرابلس الشام كان يكسب اثنى عشرة ألف كراون، وذلك بسبب أن المصريين والشوام والمغاربة، وغيرهم من المسلمين اعتادوا على ذلك النوع من النُقل (المكسرات). فعلى الرغم من أنهم لديهم فواكه رائعة منوعة كثيرة خاصة بهم، إلا أنها تفسد بسرعة. وكذلك فما كانوا لا يتناولونه في وقت الصيف، كانوا يصدرونه إلى البلاد الأخرى. وطوال الشتاء وبخاصة في وقت الصيام، كانوا يعيشون على تلك النقوليات (المكسرات) الأجنبية، التي لم تكن بلدانهم تنتج منها شيئا، وكانوا يستوردونها، لأنها لم تكن تفسد بسهولة، وتبقى لمدة طويلة، ولا تدمر بواسطة الهوام كما يحدث معهم [١٦٥].

---

(163) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 95.

ولمزيد من التفاصيل عن الفندق كظاهرة سياسية واقتصادية وقانونية في مصر وعالم البحر المتوسط، يمكن الرجوع لدراسة أعدها الدكتور صبحي لبيب في هذا المجال. كذلك تناولت دراسة قيمة في الفصل الثامن منها وكان بعنوان "التجارة المسيحية وتدعيم نظام الفنداكو" في كثير من صفحاته تفاصيل وأهمية وازدهار فنادق الإسكندرية المتخصصة للتجار الأوروبيين خلال العصر الوسيط المتأخر في مدن الموانئ، والدور الذي لعبته في العلاقات بين التجار الأوروبيين والمسلمين. لمزيد من التفاصيل، انظر: نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص ٢٨٨ – ٢٩٢؛ صبحي لبيب (دكتور): الفندق ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية، فصلة في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، اعداد وتقديم د. رؤوف عباس، القاهرة (دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع)، ١٩٨٦م، ص ٢٨٥ – ٣٠٥؛ ح. هايد: المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٠٣ – ٣٠٧، ٣٢٩ – ٣٣١؛ أوليفيا ريمي كونستابل: إسكان الغريب في العالم المتوسطي، السكن والتجارة والرحلة في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط، تعريب وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة محمد ياسين الصيد، بنغازي (دار المدار الإسلامي) ٢٠١٣م، ص ٣٨٦ – ٤٢١.

(164) Jean Thenaud, Op. Cit., p. 27.

(165) Martin Baumgarten, Op., Cit., pp. 437- 8.

ولقد تعددت روايات الأوروبيين بشأن تجارة وسلع مصر الداخلية والخارجية. إذ ذكر ميشولم بن ميناحيم أن فاكهة الإسكندرية جيدة ورخيصة، والخبز واللحم وكل أنواع الطيور رخيصة للغاية، ولكن خشب البناء، والزيت والعسل والخمر عزيز للغاية، لأنه يجب دفع ضرائب عليها تصل إلى ٢٤%. وكتان الإسكندرية جيدة للغاية، وملابسهم الكتانية جميلة ورخيصة. والأمطار لا تسقط أبدا على الإسكندرية، باستثناء القليل خلال الشتاء. وفواكههم تنضج وتزداد كلما زادت كمية الندى. ويسجل أنه لم ير مثل هذا الندى في حياته، وأنه يشبه المطر، ولكنه يتبخر عندما تسطع الشمس. وسبب رخص الدواجن لأنهم يفقسون في أفران. وهم يدفئون الأفران، ويضعون داخلها روث البهائم والخيول. ويضعوا في كل فرن ألف أو ألفين بيضة. وبالتالي وبعد حوالي ثلاثة أسابيع يحصلون على دجاج حي، ويحصلون على طيور لا نهاية لهم [١٦٦].

وجاء عند عوباديا جارى دا بيرتينورو سنة ١٤٨٧م أنه جاء برفقة السفينة التي أقلته للإسكندرية من رودس، سفينة أخرى سعتها مائتي طن كان سيد رودوس قد اشتراها وحملها بالقمح لبيعه في الإسكندرية [١٦٧]. مما يشير للأهمية والقدرة الاقتصادية التي تمثلها مدينة الإسكندرية والتي جعلت سيد رودس يختارها دون بقية موانئ البحر المتوسط لبيع هذا الحمل من التجارة.

في حين اعتقد فرانسيسكو سيريانو أن الإسكندرية لو لم تكن ميناء القاهرة، ويصلها كميات عظيمة من البضائع، لأصبحت خالية كلية بالنظر لشدة سوء هوائها. وأضاف أن المدينة حتى الآن (يعني وقت زيارته لها) كانت لا تزال ممتعة بحدائقها وفاكهتها الوفيرة، غير أنه لا يوجد بها كروم ورمان، ولا يتوفر بها سوى القليل جدا من اللحوم، والقمح، وعلى العكس يتوفر بها الكثير من الطيور، والكثير جدا من الأرز، وحب الكيبر الذي وصف بالأفضل في العالم [١٦٨].

في الوقت الذي أورد فيه دومينيكو تريفيزان أن المحال والتي تدعى عندهم (بوتيكات) bottege كثيرة جدا في الإسكندرية. وأضاف في مناسبة أخرى أن أمير المدينة أرسل له هدية مكونة من كميات كبيرة من الخراف والخنازير والدجاج والخبز والبسلة الطازجة والليمون والبرتقال والفجل. وفي المقابل رد عليه هديته بهدية، قوامها أقمشة قيمة مذهبة محلاة بالورد وسادة. وأقمشة ساتان حريرية ذات ألوان فضية وبرتقالية وأرجوانية وبنفسجية. وستة قوالب

(166) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., p. 160.

(167) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 218.

(168) Francesco Suriano, Op. Cit., p. 198

من جبن بياشنزا Piacenza (Plaisance) الفاخر الذي يعرف اليوم بجبن بارماجانو ريجانو يزن القالب منها ٤٠ رطلا [١٦٩]، مما يعكس أحوال المدينة الاقتصادية يومها.

وفي مجال التبادل النقدي والنظم المالية التي سادت يومها التعامل بين المصريين والأوروبيين، نجد مارتن بومجارتن ورفقته، يحضرون معهم مبالغ مالية ضئيلة للإنفاق على ما قد يحتاجونه. وفي المقابل جلبوا معهم بالإضافة لها، صكوك مبادلة من البندقية [١٧٠].

وفسر لنا أرنولد فون هارف بشأن صكوك المبادلة هذه، أنه وأثناء وجوده في البندقية، ذهب لتاجر بندقي له تجارة في كل بلدان ما وراء البحار. ويتيح هذا التاجر، صكوك مبادلة في مدن الإسكندرية ودمياط ودمشق وبيروت وأنطاكية والقسطنطينية، وغيرها من المدن، وبها يستطيع المرء تغطية احتياجاته. وعندما ذهب لمدن الوثنيين (يعني المسلمين)، وقدم صكوك المبادلة تلك للشخص الذي أُعد صك المبادلة له، وعلى الرغم من عدم استطاعته مبادلته الحديث، إلا أنه كان يهز رأسه له، ويقبل إصبعه لإظهار احترامه له، ويعطيه الصكوك. وبعدئذ كان يحملق فيه ثم يختفي في نهاية حانوته، ليعود في الحال ويدفع له أمواله، ثم كان يشير له بإصبعه فيما يفيد بضرورة كتابة كل ما استلمه. وأكد أرنولد فون هارف أن التاجر البندقي كان قد أُخبره بكل هذا في البندقية. والحقيقة أنهم التزموا بذلك معه على الرغم من كونهم وثنيين (يعني مسلمين) [١٧١].

ولعل ما أورده مارتن بومجارتن، وروايات الأوروبيين المقارنين معه عن الأحوال الاقتصادية للمدينة، وآخرها تنتمي لسنة ١٥١٢م، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن مدينة الإسكندرية ظلت مزدهرة اقتصاديا برغم كل الأحوال والتغيرات الطبيعية والسياسية والعسكرية التي أحاطت بها حتى قبيل نهاية العصر المملوكي.

ولكن أحوال المدينة لم تلبث أن تدهورت بسرعة شديدة في خلال السنوات الثلاث اللاحقة. إذ ووفق ما جاء في حوليات ابن اياس بشأن زيارة السلطان قانصوه الغوري لها سنة ١٥١٥م، واقامته فيها يومين وليلتين (شهر ذو الحجة سنة ٩٢٠هـ) لتفقدها، يقول "لم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار، لا من المسلمين، ولا من الفرنج، وكانت المدينة في غاية الخراب، بسبب ظلم النائب، وجور القُباض، فانهم صاروا يأخذون من التجار العُشر

(169) Domenico Trevisan, Op. Cit., p.١٧٥ .

(170) Martin Baumgarten, Op Cit., p. 436.

(171) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 71.

عشرة أمثال، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الثغر، فتلاشى أمر المدينة، وآل أمرها الي الخراب، حتى قيل طُلب الخبز فلم يوجد ولا الأكل، ووُجد بها بعض دكاكين مفتحة، والبقية خراب لم تُفتح" [١٧٢].

١٥- الاستعداد للرحيل عن الإسكندرية:

ويبقى القول في هذا المجال، أنه أثناء وجود مارتن بومجارتن ورفقته في الإسكندرية تزودوا بكل احتياجاتهم الضرورية للرحلة إلى القاهرة. وتمت التوصية بهم إلى تغري بردي المملوك، فحرصوا على التودد إليه، بتقديم هدية له عبارة عن خمسين قطعة ذهبية أشرفي [١٧٣]. لأنهم وحسب قول مارتن بومجارتن يستطيعون السفر تحت حمايته وعنايته بشكل أكثر أمنا. وهذه الأموال لم تكن أكثر مما توقعه منهم تغري بردي طويلا، إذ اعتاد التأكيد عليهم بكل الخدمات التي في سلطته. ولكنه حالما حصل منهم على تلك الأموال ووضعها في جيبه أخذ في التهرب منهم وتجنبهم، فبدأوا من جانبهم يضعون في اعتبارهم بشكل جدي أنهم أجانب [١٧٤].

وحري بالذكر، أنه عند الرحيل من الإسكندرية برا في الطريق إلى رشيد، وجب دفع ضريبة عند بوابة المدينة من هذه الجهة. وبلغت قيمتها كما سجل جان ثينو أربع عشرة دوكات، وكان يستوي في ذلك حسب روايته الفرد مثل عشرة آلاف، وعشرة آلاف مثل الفرد، ففي كل الأحوال لا يتم دفع سوى ذلك المبلغ. فعلى الرغم من أن المماليك المصاحبين لهم أخبروا موظفي البوابة أنهم مرافقين للسفير الفرنسي ومن معه، ويحملون خطابات للسلطان، وأظهروا أمان المرور الدال على ذلك، إلا أنهم أخذوا منهم أربعة أشرفي ذهبي [١٧٥].

١٦- الرحلة من الإسكندرية لرشيد:

عقب استكمال مارتن بومجارتن ورفقته لتجهيزاتهم، وفي صباح الثاني والعشرين من سبتمبر، وبعد اثنى عشرة يوما من الإقامة بالإسكندرية، ركبوا بغالا، وتوجهوا نحو مدينة رشيد برفقة تجار إيطاليين ومملوكٍ اتخذوه دليلا لهم [١٧٦]. وعندما وصلوا إلى هناك، وقبل دخول المدينة دفع كل منهم ست قطع فضية مما تسمى مديني [١٧٧]

---

[١٧٢] ابن اياس: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٢٤ . ٤٢٥.

[١٧٣] يذكر ابن إياس أن غش العملة كان سائدا أيام الغوري، وكان الأشرفي الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوي اثنا عشر نصفا. انظر: ابن إياس: المصدر السابق، ج ٥، ص ٨٩.

[174] Martin Baumgarten, Op Cit., p. 438.

[175] Jean Thenaud, Op. Cit., p. 28.

[١٧٦] لمزيد من التفاصيل عن الطريق من الإسكندرية إلى رشيد، انظر: إتيان كومب: المرجع السابق، ص ١- ١٦.

[١٧٧] **المديني:** عملة فضية مملوكية ذُكر أن الدوكات البندقية تعادل خمس وعشرين قطعة منها. انظر:

maydins على البوابة. وساروا بعد ذلك في غابة من أشجار النخيل، في وقت كانت الروائح الطيبة المختلفة تفوح بكافة الأشكال. وتحت نخلة محملة بثمار التمر جلسوا للراحة، حيث زود كل منهم نفسه بحفنة منه. كما أنعشوا أنفسهم بشرب كميات وفيرة من المياه من نبع مجاور، وتزودوا بمياه احتياطية تحسبا لاحتياجها [١٧٨].

وأوضح ميشولم بن ميناحيم أنه لم يكن مسموحا إلا بركوب الحمير والبغال حتى للمسلمين، ولم يكن يستطع ركوب الخيل سوى المماليك. ولذا، وبدوره ركب ميشولم بن ميناحيم ورفقته حميرا من الإسكندرية في رحلة استغرقت يوما حتى وصولهم إلى مدينة رشيد (١٢ – ١٣ يونيو سنة ١٤٨١م). وعندما وصلوا إليها، تركوها خارج المدينة على الطريق الرئيسي، لأنه ووفق قوله لا يسمح المسلمين للمسيحيين أو اليهود بإحضار البغال والحمير داخل المدن. وبهذا الشكل تركوها في مكان محدد، وبمجرد تركها كان هناك مسلم مسؤول عنها يأتي على الفور ليأخذها. وأوجز ميشولم عن رشيد أنها مدينة جميلة [١٧٩].

أما عوباديا جاري دا بيرتينورو وبعد قضاء أسبوع في الإسكندرية، فقد طلب من مستضيفه في الإسكندرية السيد موسيس جراسو احضار حاجياته التي تركها في السفينة المقلة له إلى الإسكندرية، والتي حجزها سكون الرياح في مرسى أبو قير، وارسالها له إلى القاهرة. في الوقت الذي ركب فيه جملا وتوجه به لرشيد، لكي يستقل منها سفينة نهرية تنقله للقاهرة [١٨٠].

وأورد أرنولد فون هارف بدوره أنه استأجر حميرا من المكاريين نقلته من الإسكندرية لرشيد. وكذلك ركب جان ثينو وبقية أفراد السفارة الفرنسية المرافق لها، حميرا وبغالا نقلتهم من الإسكندرية إلى رشيد حيث أمضوا ثلاثة أيام في انتظار المركب التي استأجروها في طريقهم للقاهرة [١٨١].

في الوقت الذي أفرد فيه الحسن بن الوزان الزياتي بعض السطور بخصوص حيوانات النقل ما بين الإسكندرية ورشيد ذكر فيها أنه "يوجد في خارج المدينة (يعني رشيد)، ضمن نوع من ربض، الكثير من البغال والحمير للتأجير لأولئك الذين يريدون الذهاب إلى الإسكندرية. والذي يستأجر أحد هذه الحيوانات لا يحتاج إلى

Flix Fabri, The Book of the Wanderings of Brother Felix Fabri, in. Palestine Pilgrim`s Text Society, vol. 7 – 10, Reprinted from the Edition of 1887 – 1897, U. S. A., 1971, vol. X, p. 488.

(178) Martin Baumgarten, Op., Cit., p. 438.

(179) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 159, 163.

(180) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 223.

(181) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 96; Jean Thenaud, Op. Cit., pp. 29 – 30.

قيادته، وما عليه إلا أن يتركه يسير وحده وسيذهب به إلى مقصده، وكذلك الحال في العودة فسيرجع به إلى البيت، ولا يبقى عليه إلا أن يتركه يذهب وحده إلى حظيرته. وهي حيوانات سريعة جدا حتى إنها لتقطع أربعين ميلا بين الصباح ووقت العصر، وتتبع دوما ساحل البحر، حتى إن الأمواج لتضرب أحيانا قوائمها" (١٨٢).

وأيا كان الأمر فبعد وقفة قصيرة للراحة بعد عبور بوابة المرور إلى رشيد، والتي من المؤكد أنها كانت على مسافة كبيرة من المدينة نفسها، واصل مارتن بومجارتن ورفقته رحلتهم كما وصف عبر مستنقع يملأه النيل حتى يفيض، إلى أن وصلوا للبحر. وبعد ذلك لمستنقع آخر حيث وجدوا جمعا من العرب يصطادون، أجبروا كل واحد منهم على دفع قطعة باثنين مديني. ولقد أصابهم طول الطرق وحرارة الشمس بضربة شمس خفيفة. وحوالي وقت غروب الشمس وصلوا إلى كوخ منعزل حيث ربطوا بغالهم، وشربوا ماءً مالحاً، ثم ارتموا على الرمال (١٨٣).

ووصف مارتن بومجارتن ليلهم بسمائه الصافية، ولمعان قمره طوال الليل. ولأنهم لم يكونوا معتادين على ذلك النوع من الأسرة (يعني الرمال). وكذلك وخوفا من اللصوص، وبعد استراحتهم نحو أربع ساعات، ظنوا أنه من الأفضل لهم مواصلة مسيرهم. حيث وصلوا بعد ذلك إلى صحراء بها رمال ناعمة، وهناك هبت عاصفة قادمة من البحر، سببت كثبانا صغيرة من الرمال أمامهم وخلفهم. ولذلك لم تعد بغالهم تستطيع التعرف على الطريق، وإلى أين يذهبون. وفي النهاية وصلوا إلى غابة من أشجار النخيل، فاتخذوها ملجأً لهم من تلك العاصفة. وبعد فترة ليست بالطويلة وصلوا إلى رشيد فأنزلوا حمولة البغال، وذهبوا للنوم لوقت قصير (١٨٤).

١٧- وصف رشيد ونهر النيل:

وقال مارتن بومجارتن عن رشيد إنها مدينة في مصر السفلى تقع شمالا وجنوبا على ضفاف النيل، وهي غير محاطة بأسوار، ولكن بأبراج كنائس شامخة تزين كنائسها بشكل رائع، وهي مدينة غنية وكبيرة (١٨٥).

في الوقت الذي وصفها السفير البندقي دومينيكو تريفيزان بمدينة جميلة للغاية تقع على فرع النيل وغير محاطة بالأسوار، وأنها مأهولة بالسكان ومنازلها جميلة. ومما يذكر في هذا المجال أنهم أقاموا لأجله ومن جاءوا في معيته خياما تحت أشجار النخيل في انتظار السفينة التي كانت سوف تقلهم على صفحة النيل في طريقهم للقاهرة.

(١٨٢) انظر: الحسن بن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٧٤.

(183) Martin Baumgarten, Op. Cit. p. 438.

(184) Ibid., Op. Cit. Loc. Cit.

(185) Ibid., Op. Cit. Loc. Cit.

ولما كانت السفينة قد تأخرت في الوصول، دخل السفير المدينة لزيارتها، حيث قابله حاكم المدينة الذي أهداه ست أوزات وستين رغيفا من الخبز، وقفة (سلة) من الأرز. واصطحب الحاكم، السفير في جولة لمشاهدة كل المدينة، وأخذه إلى حديقة شاهد فيها شجرة الموز muse، ليعود السفير بعدها ليخلد للراحة حتى وصول السفينة [١٨٦]. وتظهر رواية دومينيكو تريفيزان حرصه على ذكر شجرة الموز ووصفها لبني جلدته كونها ثمرة غير معروفة لهم ولا تتم زراعتها هناك.

ولقد أورد الفرنسي جان ثينو سنة ١٥١٢م عن مدينة رشيد التي سماها رشيت Rachet أنها مدينة غير مسورة، تحتوي على ستمائة أو سبعمائة منزل، وبها وفرة في اللحوم والأسماك والتمور والأقماح والخمر وكل ضروريات الإنسان. ومنازلها مثلها مثل بقية منازل مصر مبنية من مكعبات الطين المجفف بواسطة الشمس، وهي غير مسقوفة باستثناء أغصان سعف النخيل التي تغطيها [١٨٧].

وذكر الحسن بن الوزان الذي تواجد في رشيد في يونيو سنة ١٥١٧م، أنه يوجد حول بلدة رشيد التي يسميها الطليان روزيتو العديد من حدائق النخيل وأراضي ممتازة لزراعة الأرز وأضاف أنه " ليس لهذه المدينة سور، ولها على الأرجح منظر بلدة كبيرة لا منظر مدينة. ويظهر حول المدينة العديد من المصانع التي يضرب فيها الأرز ببعض الأدوات. وأعتقد أنه يقشر فيها وينظف في كل شهر أكثر من ثلاثة آلاف كيل من الرز" [١٨٨].

ولما كانت رشيد أولى مدن مصر النهرية في طريق مارتن بومجارتن للقاهرة، حرص على اختصاص نهر النيل وتأثيره الطبيعي والزراعي والبشري على مصر ببعض التفصيلات. إذ وصفه بكونه النهر الأعظم وفق ما يعرفون، وبأنه يجري من الجنوب للشمال تجاه البحر ليصب في سبع مصبات، وهو يفصل بين آسيا وأفريقية. وأضاف فيما يختص بمنبعه، أنه لا يوجد كاتب ذكر حتى الآن أنه شاهده، أو حصل على رواية آخرين عنه، وأن أصله غير مؤكد، في حين ذكر بعضهم أن أصله هو Ascopon، وهو نهر ينبع من الظلام [١٨٩].

وتابع مارتن بومجارتن، بأن النهر يفيض على كل مصر في الصيف [١٩٠]، ويحضر معه دائما على طول مسيره طمي جيد ولذلك يسمى باسم Nilus، ومياهه تسقي كل من الأرض المحروثة أو غير المحروثة، وتجعل التربة

---

(186) Domenico Trevisan, Op. Cit., pp. 177 – 178.

(187) Jean Thenaud, Op. Cit., pp. 29 – 30.

(١٨٨) انظر: الحسن بن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٧٤ – ٥٧٥.

(189) Martin Baumgarten, Op. Cit. p. 438.

(١٩٠) أشار الفرنسي جان ثينو أن نهر النيل يفيض باستمرار شيئا فشيئا في نهاية شهر يوليو لمدة ثلاثين أو أربعين يوما. أنظر:

خصبة للغاية. والحراث يعملون بسهولة جدا، فكل ما يفعلونه هو إحضار قطيع من الغنم لتدوس على البذور، أو عمل حفر ضحلة للغاية بالمحراث. وطوال أربعة أو خمسة أشهر كانوا يعودون في حينه ليقلعوا حصاد وفير. والمصريون هم الشعب الوحيد على الأرض الذين يحصدون مرتين سنويا، ويشترون حصاد وفير بقيمة رخيصة للغاية [١٩١].

هذا، ولقد لفتت مسألة ازدهار المزروعات على جانبي النهر وحصاد المصريين لزراعتهم مرتين سنويا على الرغم من ندرة الأمطار في مصر، نظر أرنولد فون هارف. وسجل الطريقة التي يتم بها ذلك، وهي أن النهر يبدأ في الارتفاع كل سنة في بدايات أغسطس، وتأخذ في الارتفاع قدما يوميا، ويستمر الارتفاع لمدة شهرين حتى بداية أكتوبر. وعندما يصبح مرتفعا للغاية يفيض على جانبيه ويغطى كل أراضي مصر. ثم يأخذ في النقصان بمقدار قدم يوميا لمدة شهرين، ولذلك يبدو صغيرا للغاية في ديسمبر. وهو ما أثار تعجبه لأن ذلك عكس ما يحدث، مقارنة بأنهار بلاده. وأضاف أنه عندما تنخفض المياه في نوفمبر، كان المصريون يبذرون في الطين الذرة، والقمح، والشعير، وباقي المحاصيل. وفي خلال شهر كانت تنضج وتدرس مع قش قصير سماكته ثلاثة أشبار. وحوالي شهر أبريل كان يوجد على النيل الكثير من السواقي التي تدار بواسطة الثيران، لتضخ الماء من النيل للأرض لتسقي المراعي والحقول. وبهذا الشكل تنضج المحاصيل مرتين سنويا دون أن تمطر [١٩٢].

وتابع أرنولد فون هارف أن فيضان النيل يبدو غريبا للذين يسمعون، ويدهشون عندما يرونه. إنه النهر الوحيد في العالم الذي يفيض في وقت الصيف بينما تتقلص بقية الأنهار عن ضفتيها. بينما هو يزداد في فصل الصيف ويفيض على كل مصر، وينخفض في فصل الشتاء، في وقت تفيض فيه بقية الأنهار على ضفافها. وفروع النيل سبعة وتصب في البحر، بالإضافة لأفرع أخرى. ومعظم مياه النيل تأتي من جبال أثيوبيا التي تقع بعد مصر، وهي السبب لفيضانه. ونهر النيل هو النهر العظيم في العالم الذي لا تجعل مياهه الجو ضبابيا وباردا. ولذلك فمصر البلد الوحيد في العالم الخالية من الأمطار، ومع ذلك مثمرة للغاية، وغنية بالسكان، وثرية بكل أنواع المخلوقات الحية. وأوضح أنه شاهد في الإسكندرية، والقاهرة، والصحاري المجاورة، زخات من المطر، ولكنه أُخبر أنها نادرة الحدوث.

وذكر أرنولد فون هارف بشأن فرع النيل في رشيد، أنه يتدفق خلال أرض مصر ثم يصب في البحر، وهو في رشيد واسع كنهر الراين في كولونيا. وهو يدخل في البحر بقوة من رشيد لمسافة خمسين ميل إيطالي. ويمكن تتبعه في البحر بسهولة من خلال لونه الباهت وحلاوته. وأنهم وفي الواقع، وبينما كانوا يبحرون في طريقهم

Jean Thenaud, Op. Cit., p. 32.

(191) Martin Baumgarten, Op. Cit. p. 439.

(192) Arnold von Harff, Op. Cit. p. 97.

للإسكندرية، وعلى مبعدة خمسين ميل من رشيد كانوا يستطيعون تمييز النيل بلونه الباهت، لأنه دائما ما يكون باهتا، بينما لون البحر أخضر. ولقد سحبوا من هناك المياه إلى السفينة بواسطة الدلاء، وكانت حلوة كما هي في النيل. وبدا الأمر له غريبا كون النهر يحافظ على حلاوته ولونه الباهت كل هذه المسافة داخل البحر [١٩٣].

ووصف مارتن بومجارتن مصر بكونها بلداً سهليةً ومسطحة، ومقسمة بواسطة أفرع عدة للنيل. وعندما يفيض النهر تبدو مدنها وقراها وبيوت الفلاحين المحصنة ضد الفيضان كجزر صغيرة كثيرة. وكانت كل مخلوقات الأرض التي تبقى في الحقول تغرق، ولا ينجو منها إلا من يكون في المناطق المرتفعة. وأثناء الفيضان، كان يتم الحفاظ على الدواب في المنازل، لتتغذى على العلف الذي كان ملاكهم يحتفظون به لأجلها في المنزل. وكان الناس العاديون يُنحون في تلك الأثناء العمل كلية، ويمضون كل الوقت في الاستمتاع والاحتفال [١٩٤].

ولعل ما ذكره مارتن بومجارتن عن نهر النيل يشبه في كثير من تفاصيله رواية الحسن بن الوزان عن نهر النيل، إذ ذكر "ويبدأ نهر النيل في الارتفاع في أواسط حزيران (يونيو) ولا يستمر فيضانه أكثر من أربعين يوما، وتدوم التحاريق أيضا أربعين يوما. وفي خلال هذه الفترة التي تمتد على ثمانين يوما تشبه مصر وقراها جزرا لا يمكن الانتقال فيها من بلدة لأخرى إلا على المركب. ومن السهل جدا صنع جرمات ضخمة، حتى إن بعضها يحمل ستة آلاف إلى سبعة ألاف كيل من الحب، هذا فضلا عن بضع مئات من الأغنام، ولا تستطيع الإبحار صعدا ضد التيار إلا إذا كانت فارغة وبصعوبة" [١٩٥].

ولفت نهر النيل كذلك نظر جان ثينو بخصوبته التي أرجعها للطمي الذي يأتي به النيل من مرتفعات أثيوبيا خلال فصل فيضانه الذي أوضح أن بدايته تكون في نهاية شهر يوليو ويستمر لمدة ثلاثين أو أربعين يوما. وعقب أنه لولا هذا النهر لكانت مصر بلداً رمليةً مثل ليبيا أو جزيرة العرب. ووجود كميات عظيمة من أسماك المياه المالحة التي تشبه أسماك الرنجة في بلاد الفلاندرز (ولعله يقصد بها أسماك البوري)، فضلا عن أعداد كبيرة من التماسيح به [١٩٦].

ومهما يكن من أمر، وعودة لرحلة مارتن بومجارتن، وفي اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٠٧م، قدم تغري بردي الذي يذكر مارتن بومجارتن أنهم اشتاقوا إليه كثيرا، ومعه عدد ضخم من الجمال إلى رشيد. ولكنه لم يمكث سوى وقت قصير بها، حيث شغل وزوجتيه اللتين أحضرهما معه وأمتعته سفينة. وأخذ مماليكه سفينة أخرى،

---

(193) Ibid., Op. Cit. p. 96.

(194) Martin Baumgarten, Op. Cit. p. 439.

(١٩٥) الحسن بن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٦٨ – ٥٦٩.

(196) Jean Thenaud, Op. Cit., pp. 30 – 32.

واعتلى خليط من المسيحيين واليهود والمصريين والأمم الأخرى وكان من بينهم مارتن بومجارتن ورفقته سفينة ثالثة. وكان في مواجهتهم كما يقول غابة ضخمة من أشجار التمر، حيث تم صيد عددًا كبيرًا من الببغاوات منها (١٩٧).

وقبل متابعة مارتن بومجارتن وبقية الجمع في رحلتهم من رشيد إلى القاهرة، يجدر بالذكر عن رحلات الزائرين الأوروبيين في تلك الحقبة الزمنية، أن ميشولم بن ميناحيم استأجر قارب للذهاب إلى فوة عبر النيل. وكانت هناك رياح قوية. وعلى الرغم من أنهم كانوا يبحرون عكس التيار، إلا أنه كان باستطاعتهم استخدام الشراع. ووصل القارب فوة بعد ثلاث وعشرين ساعة قطعوا خلالها كما قدر مسافة ٦٠ ميل، حيث وجدت على ضفتي النيل مدن غير مسورة. ولقد سجل أن المصريين كانوا يزرعون السكر والأرز على ضفاف النيل في كميات عظيمة. ووصف تمساح النيل الذي ذكر أن اسمه بالعربية altamsa، والطيور التي تقوم بتنظيف أسنانه، وكيف لا يستطيع كليهما الاستغناء عن الآخر (١٩٨). وشاهد عوباديا جاري دا بيرتينورو كذلك التمساح خلال رحلته النيلية من رشيد إلى القاهرة وسجل تسميته العربية El Timsah (١٩٩).

(197) Martin Baumgarten, Op. Cit. p. 439.

(198) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 164 – 5.

(199) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 223.

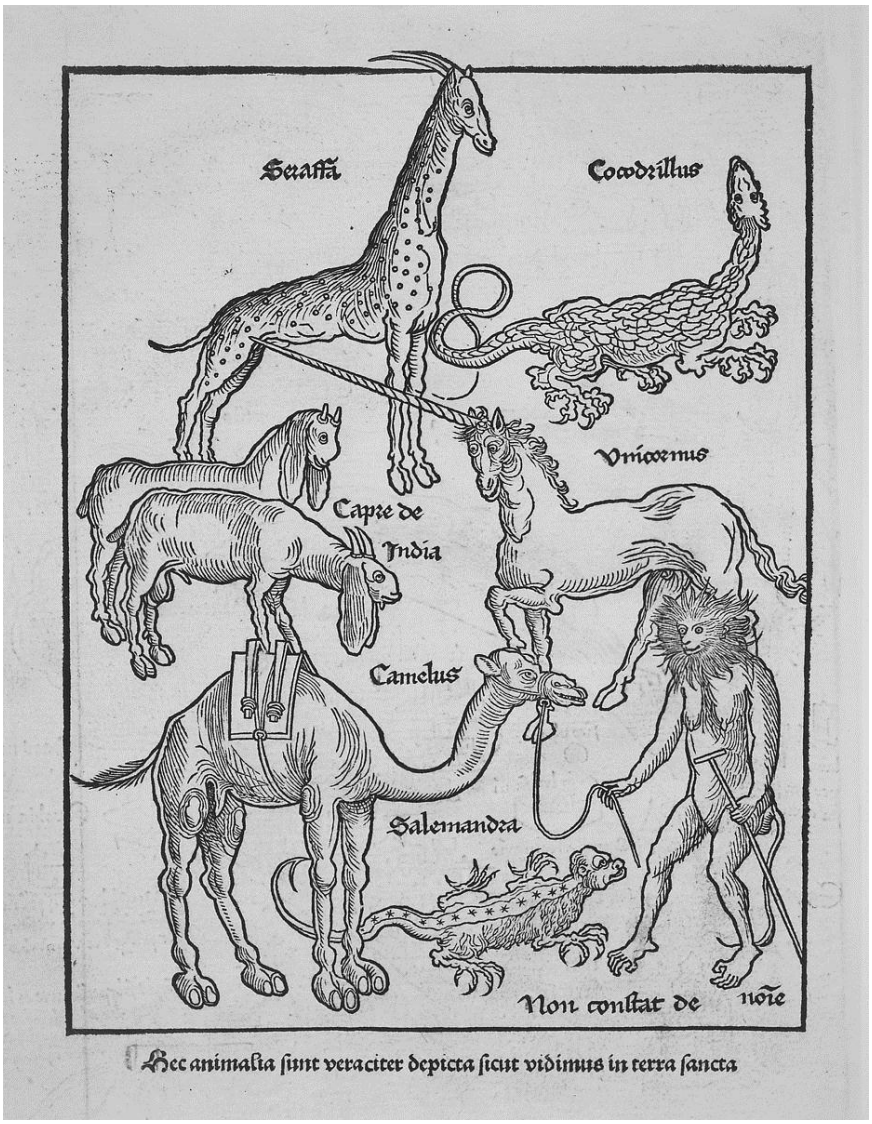

رسوم للحيوانات التي شاهدها برايدنباخ كما جاء في روايته

أما أرنولد فون هارف فقد استقل سفينة نيلية نقلته من رشيد للقاهرة مقابل نصف دوكات للفرد، في رحلة ذكر أنها تستغرق عادة خمسة أيام. ووصف السفن التي تسير في النيل، بالصغيرة ولها مقدمة طويلة مستديرة من الأمام. وكانت سفينتهم تبحر في النهر طالما كانت الرياح مواتية، ويتم سحبها بالخيول في حال ما كانت الرياح معاكسة. كذلك ركب الفرنسي جان ثينو سنة ١٥١٢م مركبا نقلته بمساعدة الريح المواتية على صفحة نهر النيل من رشيد في طريقه إلى القاهرة [٢٠٠]. كذلك، توجه السفير الإيطالي دومينيكو تريفيزان على رأس وفد جمهورية البندقية

(200) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 97; Jean Thenaud, Op. Cit., 32.

للسلطان الغوري سنة ١٥١٢م، في سفينة نيلية من رشيد حتى ميناء بولاق أحد ضواحي مدينة القاهرة في رحلة استغرقت يومين، سارت السفينة خلالها بمساعدة الشراع، وأحيانا بالحبال التي يجذبها الرجال [٢٠١].

١٨- الرحلة من رشيد إلى القاهرة:

مر مارتن بومجارتن على خط سير الرحلة من رشيد إلى فوة مرور الكرام ولم يورد عنه تفاصيل كما فعل مواطنه أرنولد فون هارف قبل عقد من الزمان. إذ وصف أرنولد فون هارف رحلته البحرية عبر النيل من رشيد إلى فوة بأنها مرت بثمانية مدن جميلة على جانبي نهر النيل، كانت كل منها على مبعدة نصف ميل ألماني من الأخرى. وجميعها بدون أسوار، ويتجمع في كل منها ثلاثة أو أربعة آلاف يعيشون معا. والمنازل في هذه المواضع مغطاة بالطين لأنها نادرا ما تمطر في مصر. وحدد أول المدن الثمانية بمدينة برمبال Berimbal (إحدى القرى التابعة لمركز مطوبس بكفر الشيخ الآن)، وأورد أن ذراعا صغيرا يمتد منها إلى ميناء حسن هو البرلس Brulis. والثانية هي محلة Mahallet (لعلها محلة الأمير الحالية إحدى قرى مركز رشيد). والثالثة هي مدينة مطوبس Motobijs (مدينة في الجزء الشمالي من محافظة كفر الشيخ). والمدينة الرابعة ديبي Deyp أو]Dibi (إحدى القرى التابعة لمركز رشيد بالبحيرة الآن). والخامسة إدفينا Defena (قرية تابعة لمركز رشيد بمحافظة البحيرة). والسادسة ديروط Daruty (Derut) (التابعة لمركز المحمودية . البحيرة الآن). والسابعة سنديون Schandion (إحدى القرى التابعة لمركز فوة بكفر الشيخ الآن). والثامنة Maschera حيث يصنع الكثير من السكر. وواصل قوله بإنه في تلك المدن ينمو الكثير من القصب الذي يصنع منه السكر. وفي كل مدينة منزل كبير يعدون فيه السكر بالطريقة التالية: إذ يقطعون القصب وهو شديد الحلاوة على الأرض، ثم يقطعونه لقطع صغيرة بطول إصبع أو أقل. وبعدها كانوا يضعون القطع في وعاء صخري كبير فيه حجر طاحونة كبيرة لطحنها. حيث كان أحد الثيران يقوم بتدوير حجر الطاحونة الأدنى، وبهذا الشكل كان الحجر يطحن القصب لقطع أصغر. وبعد ذلك كانوا يأخذون القصب المطحون ويضعونه في غلاية ضخمة للغاية تستوعب تسعة أو عشر دلاء كاملة. ويشعلون النار تحتها لتغلى، ثم يقشطون أعلاها ويسكبونه في أنبوب أو براميل. وهذا يدعونه عسل القصب الذي تطبخ به جميع أنواع الطعام، لأنه ليس لديهم زبدة، إذ تسيح بفعل الحرارة الشديدة. وكانوا يفرغون ما يتبق في قاع الغلاية في أنبوب مسنن حيث تبرد. ومنها كانت تصنع قوالب السكر التي تجلب لألمانيا في كميات عظيمة [٢٠٢].

ومهما يكن من أمر، ذكر مارتن بومجارتن أنهم وفي اليوم الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٠٧م رحلوا عن رشيد. وبدأوا الإبحار في النهر، فوصلوا لمدينة فوة حيث هبطوا للشاطئ وأنعشوا أنفسهم لبرهة. وعبر وصفه عن

(201) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 179.

(202) Arnold von Harff, Op. Cit., p. 100.

اكتظاظ المكان بالسكان، وكون أهله أقوياء وأصحاء، ومشاهدتهم هناك لضفتي النهر مغطاة بأشجار الرمان والتمر وأشجار فاكهة أخرى [٢٠٣].

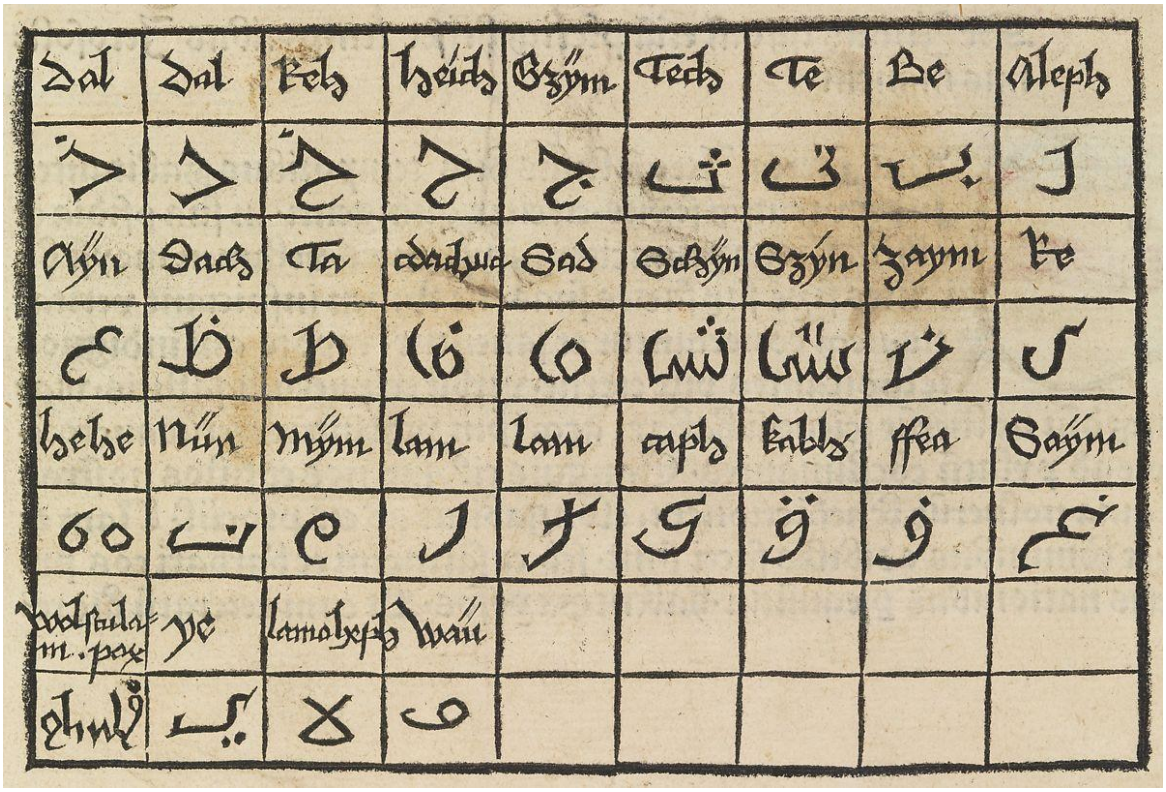

الحروف العربية كما جاءت في رواية برنارد فون برايدنباخ

ووفق قوله كان هناك بين الأشجار عددٌ لا حصر له من المنازل، فضلا عن قبور المصريين التي كان بعضها منخفضاً، والآخر مرتفعاً جدا، ولكنها كانت جميعا ذات أقواس، وتشكل مساحة عظيمة حول المدينة. وأغرى المصريون للقيام بذلك عادة قديمة لأجدادهم، الذين أثثوا بيوتهم بشكل مختلف، في حين أغدقوا الكثير من الجهد والتكلفة على قبورهم. وانفرد مارتن بومجارتن برواية لا نعلم من أين استقاها، ومدى صحتها. مفادها أنهم يلطخون أنفسهم بالقاذورات والروث عندما يندبون موتاهم. وهم يعتقدون بتحريم حرقهم أو دفنهم، ولكنهم يمسحوهم بالزيت ويحنطوهم بمنتهى البراعة، ثم يضعوهم إما في البيوت أو الهواء الطلق وفقا لظروفهم ودرجتهم. ويضع معظم الناس أصدقاءهم وأقاربهم في مدافن مبنية لهذا الغرض فوق أسطح منازلهم. وهم يرون أنفسهم عظماء إذا أظهروا استطاعتهم استضافة الموتى من أصدقائهم داخل منازلهم الشخصية [٢٠٤].

(203) Martin Baumgarten, Op. Cit. p. 439.

(204) Martin Baumgarten, Op. Cit. p. 440.

وجدير بالذكر في هذا المقام، أن ميشولم بن ميناحيم، عندما وصل ورفقته فوة استأجروا سفينة لنقلهم إلى مصر (القاهرة). وبلغت أجرة السفينة ثلاثين mijore، وتم كتابة عقد بذلك بواسطة أحد الكتاب المسلمين. ونُصح الجميع بفعل ذلك، لأن من لا يفعل، سيقوم من سينقله بنكران الأمر، والمطالبة بضعف القيمة. ولقد اختلفوا بالفعل مع صاحب السفينة فأخذهم للقاضي Cadi، والأمير فأمره برد حاجياتهم التي أخذها رهنا لديه. ولقد وصل القاهرة بعد يومين من الإبحار من مدينة رشيد [٢٠٥]. وبدوره قضى عوباديا جاري دا بيرتينورو يومين في فوة التي وصفها بالمدينة الضخمة والمكان الجميل، والتي يمكن الحصول فيها على السمك بسعر لا يذكر [٢٠٦].

وعن أحوال مدينة فوة دون أرنولد فون هارف أنها مدينة جميلة تقع على الضفة اليسرى لنهر النيل، ويوجد بها الكثير من المساجد الجميلة. وفي تلك المدينة يصنعون الكثير من السكر. وأسفل هذه المدينة وعلى الجانب الأيمن أقيمت قناة من النيل تمتد لمسافة خمسين ميل لمدينة الإسكندرية، ولذلك وعندما يفيض النهر بقوة يجري ذراع ضخم منه عبر القنال ليسقي كل إقليم الإسكندرية [٢٠٧]. كذلك نزل دومينيكو تريفيزان وعدد كبير من صحبته لزيارتها، وقال عنها أنها مأهولة بالسكان بشكل كبير، وبها عدد كبير من المحال، والكثير من الحرف [٢٠٨].

وذكر الحسن بن الوزان عن فوة "على مسافة خمسة وأربعين ميلا جنوب رشيد، وهي آهلة جدا بالسكان، متمدنة، ومزدهرة كثيرا. وللباعة وللصناع فيها دكاكين جميلة، ولكن شوارع السوق ضيقة". ويضيف "ومزارع النخيل حول فوة عديدة للغاية والأرض طيبة لقصب السكر وكذلك للقمح. ولكن القصب الذي ينبت في هذه الأرض لا يعطى سكرا جيدا. ويستخرج عوضا عن السكر نوع من عسل، شبيه بالدبس، ويستهلك في كل مصر، ذلك لأنه لا يوجد عسل في هذا القطر" [٢٠٩].

وأشار أرنولد فون هارف أنه يوجد في مواجهة فوة جزيرة صغيرة في النيل تسمى جزيرة الذهب Getzera de Heppe، ومنها يحصل السلطان سنويا على ثلاثين ألف دوكات صافي. ففي تلك الجزيرة ينمو الكثير من القصب الذي يصنع منه السكر، والكثير من الفواكه النادرة. وسجل الفرنسي جان ثينو سنة ١٥١٢م، بشأن الجزيرة

---

(205) Meshullam Ben R. Menahem, Op. Cit., pp. 165 – 6.

(206) Obadiah Jaré da Bertinoro, Op. Cit., p. 223.

(207) Arnold von Harff, Op. Cit., pp. 99 –100

(208) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 179.

(٢٠٩) الحسن بن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٧٦ – ٥٧٧.

أنها خاصة بالزوجة الرئيسية للسلطان، ويتحصل سنويا من جمع انتاجها من السكر والزبيب والكشمش والتمر والفواكه الأخرى على مئة ألف دوكات، ولذلك تسمى بجزيرة الذهب [٢١٠].

وأضاف الحسن الوزان عن جزيرة الدهب "تقع هذه الجزيرة بمواجهة فوة تماما. في وسط النيل وأراضيها مرتفعة حتى أننا نجد في هذه الجزيرة كل أنواع الأشجار المثمرة، ما عدا الزيتون. وتحوي بضع دساكر [٢١١] وقصورا فخمة، ولكن لا يمكن رؤيتها بسبب كثافة أشجار النخيل والأشجار الأخرى. والأرض هنا ممتازة لزراعة قصب السكر والرز. ويعمل كل السكان في زراعة الأرض أو في نقل بضائعهم إلى القاهرة" [٢١٢].

ومهما يكن من أمر، غادر مارتن بومجارتن والجمع مدينة فوة في اليوم السادس والعشرين من سبتمبر، حيث مروا بعدد كبير من أكواخ القرويين على طول الطريق. وكثيرا ما كان مارتن بومجارتن ورفقته يذهبون إلى الشاطئ حيث اعتادوا . وفق تعبيره – اتخاذ الحشائش طاولة لهم عند تناول طعامهم، والمشاركة في الألعاب واللهو، التي اعتاد تغري بردي والمماليك تسلية أنفسهم بهم. وفي ذلك الوقت شاهدوا شاب مسلم يعاقب بالجلد عشرين جلدة على ظهره وبطنه لشربه الخمر في السر [٢١٣].

وخلال الرحلة النهرية وفي كل مساء كان يُشعل لأجل تغري بردي عددا كبيرا من المصابيح على شكل هرم، وتُربط بعض الأجراس في الأشرعة، فتُحدث أصواتاً وألحاناً ممتعة ولطيفة للأذن عندما تحركها الرياح. واعتاد المماليك في القارب الآخر مع حلول الظلام، إطلاق بعض السهام النارية في الهواء، كانت تشبه إلى حد ما النجوم المتساقطة [٢١٤].

أما مارتن بومجارتن وصحبته الذين تبعوهم في قارب ثالث، فلم يكونوا مثلهم في رياضاتهم وتسليتهم. ومن طرائف ما ذكره أنه كان معهم في القارب عازف بوق مصري قال عنه إنه كان جاهلا، ومفتقدا للمهارة بالمقارنة بالفن والألحان الموسيقية، وكان عزفه مسموعا من مسافة بعيدة لأنه كان مرتفعا جدا. ولقد انقسموا حول طريقته غير

---

(210) Arnold von Harff, Op. Cit., pp. 99 –100; Jean Thenaud, Op. Cit., p. 33.

(٢١١) **الدساكر:** ومفردها دسكرة، جاء في المعجم الوسيط أنها كلمة معربة، تعني الأرض المستوية، وكذلك القرية العظيمة، وأيضا بناء كالقصر حوله بيوت، فيها الشراب والملاهي، يكون للملوك.

(٢١٢) الحسن بن الوزان الزياتي: المصدر السابق، ص ٥٧٧.

(213) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 440.

(214) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 440.

الماهرة في العزف ويسخرون منه، ولكنه لم يكن يشك فيهم، فقد كانوا يطلبون منه العزف ويطروه وهم يضحكون. وكلما ازداد ضحكهم كان يستمر في العزف. وبهذا الشكل، وأثناء إبحارهم كانوا يقصرون الليل [٢١٥].

وخلال النهار كان مارتن بومجارتن ورفقته يستمتعون برؤية المشاهد الجميلة للحقول والأشجار، وبصوت الطيور الصداح التي لم يروا مثيلا لها من قبل. وكان الهواء نقيا وصحيا، وأوحت لهم روائح النسيم العليل التي فاحت في الجو من الأشجار والزهور المحيطة بهم بالحياة والحيوية كوصفه. وأضاف أن ضفتي النهر كانت مغطاة بالكامل تقريبا بأشجار قصب السكر والنباتات الأخرى، وكان بينها كما أخبرهم البحارة، أعداد ضخمة من التماسيح، وأورد وصفا مطولا لها [٢١٦].

وكان أرنولد فون هارف قد شاهد التماسيح بنفسه وأورد رسمًا لها، ووصفها بثعابين الماء الضخمة. وذكر أنها تستلقي على ضفتي النيل، وحجمها ما بين خمسة عشر وستة عشر قدما، وجلدها سميك لا يمكن خرقه بالسهام، وقوتها في ذيلها. وهي تتخطف الماشية وحيوانات الحمل وتفترسها عندما تنزل النهر لكي تشرب. والبحارة في مصر يصطادون الكثير منها على الأرض عندما تخرج من النهر، وتزحف على الشاطئ عندما يفيض. وكان التجار يجففون جلودها، ويبيعونها في ألمانيا وإيطاليا على أنها جلود تنين. وهو ما اعتقده أرنولد فون هارف عندما شاهدها في روما، ليكتشف كذبه في مصر [٢١٧].

وأضاف مارتن بومجارتن أنهم أبحروا في النهر لأيام، وأحيانا كانت قواربهم تجر بالحبال [٢١٨]. وأثناء الرحلة كانوا يرون على جانبي النهر أعداداً كبيرة من صبية العرب، تبدو على وجوههم ملامح الجوع. وكانوا يجرون بخفة بجانب قاربهم يتسولون منهم بعض الطعام، فكانوا يلقون لهم ببعض الفواكه والبسكويت على الشاطئ. وبينما كانوا يبحرون شاهدوا طوال الطريق أعدادًا ضخمة جدا من القرى، والبيوت الريفية، وجموعًا كبيرة للغاية من الماشية والجمال والثيران، وأنواعًا أخرى عديدة. بالإضافة لعدد كبير من الفلاحين الرجال يحصدون المحصول للمرة الثانية هذا العام. وسجل وجود موسمين للحصاد في مصر، أحدهما في شهر أبريل، والآخر في شهر سبتمبر. وشاهدوا

---

(215) Ibid., Op. Cit. Loc. Cit.

(216) Ibid., Op. Cit. Loc. Cit.

(217) Arnold von Harff, Op. Cit., pp. 98 – 9.

(٢١٨) أكد أرنولد فان هارف بدوره أن القارب الذي كان يستقله من رشيد حتى القاهرة كان يبحر مع الريح المواتية، ويتم جره بالحبال في حالة الرياح المعاكسة. انظر:

Arnold von Harff, Op. Cit., p. 99.

كذلك العربان يسبحون في النهر وملابسهم مربوطة فوق رؤوسهم، وكانت نصف أجسادهم في الماء والنصف الآخر مكشوفة، ولذا فمن يراهم كان يظن أنهم يسيرون في الماء، وليس يسبحون [٢١٩].

وبالقرب من إحدى القرى شاهد مارتن بومجارتن المصريين يقيمون احتفالا ويرقصون في جمع كبير منهم، وجميعهم على أرجلهم، عدا أحدهم كان يجلس على ظهر جواد وهم يحيطون به. وعندما سألوا عن مغزى ذلك، أخبروهم أن الجالس فوق ظهر الجواد تم ختانه هذا اليوم، والجميع يحتفلون بهذه المناسبة. وأوضح أن المصريين الحديثين، وكل المسلمين يتم ختانهم بداية من سن الثالثة عشرة جريا على عادة جدهم إسماعيل الذي ختنه أباه إبراهيم في ذلك السن [٢٢٠].

وأشار دومينيكو تريفيزان أنهم شاهدوا كل نصف ميل أو ميل طوال الطريق النهري الذي جازوه على ضفتي النهر، آلات تتحرك بواسطة الأبقار في إشارة للسواقي، لرفع المياه من النهر لسقاية الأراضي. وأوضح أن الأرض لن تنتج شيئا دونها بسبب الجفاف، لأنها لا تمطر أبدا في تلك البلاد. ولقد لاحظ العديد من القرى على ضفتي النهر، ولكنها كانت تبدو مهجورة، ولم يكن بها شجراً يمكن أن يستظلوا به. وكانت منازل تلك القرى من الطين، ومغطاة بغصون الأشجار. وعلل ذلك لأنها إذا أمطرت لمدة يومين في تلك البلاد يعني مصر مثلما تمطر في بلاده، ستنهار تلك المنازل في غضون يومين. ورأى أولاداً شديدي السمرة مشويين وفق قوله بحرارة الشمس القائظة، يخرجون من هذه المنازل عرايا مثلما خرجوا من بطون أمهاتهم [٢٢١].

ولا يبق سوى القول، إنه وبعد رحلة بحرية طويلة عبر البحر المتوسط انتهت باستراحة قرابة الأسبوعين في الإسكندرية، أعقبتها رحلة نهرية قصيرة عبر نهر النيل انطلاقا من رشيد، وصل مارتن بومجارتن ورفقته إلى القاهرة في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٥٠٧م، لتبدأ مرحلة جديدة من مشاهداته في مصر، وهو ما سنعرض له في بحث خاص بها.

(219) Martin Baumgarten, Op. Cit., p. 441.

(220) Ibid., Op. Cit. Loc. Cit.

(221) Domenico Trevisan, Op. Cit., p. 179.

الخاتمة:

وختاما، وكما يتضح من العرض السابق، فإن يوميات مارتن بومجارتن ومشاهداته في الإسكندرية ودلتا النيل في مصر، ورغم كونها لم تشغل أكثر من عدة صفحات من سِفره، إلا أنها تميزت بدقتها الشديدة فيما حوته من معلومات، كما يظهر من مقارنتها بكتابات زوار مصر الأوروبيين المتزامنين والمعاصرين لزيارته. وهي تقدم لنا في قالب من المتعة والرصد الدقيق، معلومات ثرية للقارئ، ولطالب المعرفة فيما يختص بعلم التاريخ، والجغرافيا، والآثار، والعمران، والسكان، والتجارة، والعادات والتقاليد، والمياه، والري، والزراعة، والنبات، والحيوان. فقد كان ملاحظا شغوفا، وتمثل ملاحظاته لتلك الأمور واختلافها ما بين الشرق والغرب . إن وجدت . متعة ذهنية للمتتبع لها.

وتظهر اليوميات بما لا يدع مجالا للشك، أهمية كتابات الرحلة كمصدر من مصادر تاريخ وحضارة الإسكندرية ودلتا النيل، والإحاطة بالعديد من جوانب وأشكال الحياة بهما في أخريات الحكم المملوكي بمصر، في ظل نقص المصادر العربية لتلك الفترة الهامة من تاريخ مصر.

ولعل من أهم ما جاء عند مارتن بومجارتن، تعيينه لنا الحدود الجغرافية والطبوغرافية لمدينة الإسكندرية وقت زيارته له بعبارة رشيقة دقيقة موجزة، مفادها أنها محاطة بصحراء واسعة، وميناء، وأنهار، ومستنقعات بها شجيرات.

ومما سجلته اليوميات، أنه لم يكن في إمكان السفن الغربية دخول ميناء الإسكندرية دون إذن أميرها وحامية قلعتها من المماليك، والقواعد الإدارية والجمركية والمالية المتبعة في ذلك. ووجود تقاليد مرعية عند وصول شخصيات مهمة للمدينة بحرا. وأهمية الحمام الزاجل كوسيلة الترابط بين الإدارة المحلية في الإسكندرية والإدارة المركزية في القاهرة. كما كشفت عن بعض الحوادث الطارئة التي كانت تعن في بعض الأحيان لهذه السفن أثناء دخول الميناء.

وأظهرت اليوميات جمال ميناء المدينة، وقوة أسوارها وقلعتها، وأبرزت الدور الذي لعبته صهاريجها وقنواتها المالية في استمرار حيوية المدينة وحياة سكانها، في ظل ندرة مصادرها المائية، على الرغم مما ألمحت له بعض المصادر من رداءة مناخها. وكشفت أن غارة بطرس لوزينيان على الإسكندرية التي استمرت حوالي الأسبوع، ألحقت خراباً ودماراً استمر بالمدينة عشرات السنوات حتى مشاهدة مارتن بومجارتن للمدينة بعد نحو قرن ونصف من عمر الزمان، وكانت يومها تنتظر نهاية الحكم المملوكي بها.

وسجلت اليوميات لنا منشآت الإسكندرية المدنية وأوصافها من منازل وفنادق ونصب تذكارية ومسلات. ومنشآتها الدينية كالكنائس، مع اغفالها لذكر أية تفاصيل عن مساجدها ومعابدها اليهودية، والتي تم استكمالها من خلال المصادر الأخرى المقارنة. كما أعطتنا لمحة عن الصورة التي كانت عليها ضواحي المدينة الخارجية يومها.

وأوضحت لنا اليوميات مع الدراسة المقارنة مكونات المجتمع السكندري وعاداته وتقاليده وقت الزيارة. والطابع الكوزموبوليتاني الذي كان لا يزال يصبغ المدينة بشكلها المميز زمن الزيارة، بعد مرور عقد من الزمان على اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، والذي كان له تداعياته على العالم بعامة، ومصر والإسكندرية بخاصة. وانصهار وتعايش مجتمع الإسكندرية بمختلف أعراقه وأجناسه وأديانه.

وأبانت اليوميات أن الزخم الاقتصادي الذي عرفته الإسكندرية طوال تاريخها، استمر حتى نهاية الفترة المملوكية، ممثلا بأسواقه وفنادقه، وقناصل الجاليات الأجنبية، ووفرة بضائعه، وتنوع أساليب التبادل المالي. ولم يؤثر فيه بشكل ملحوظ رصدته اليوميات اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، على الرغم من أن زيارة مارتن بومجارتن للمدينة جاءت بعد عقد من هذا التحول في طرق التجارة العالمية، وقبل عقد من نهاية الحكم المملوكي للمدينة.

وطوفت بنا اليوميات في رحلة برية ممتعة على ساحل البحر المتوسط من الإسكندرية حتى رشيد، أعقبتها رحلة نيلية مشوقة على صفحة النيل من رشيد حتى القاهرة، سجلت فيها لمجتمع الريف المصري في دلتا النيل بمدنه وقراه. وأظهرت أن مدن الدلتا على امتداد ضفتي نهر النيل، لم يكن من بينها أي مدينة مسورة. وأبانت الفرق بين مجتمع المدينة ومجتمع القرية في مظهره وسلوكياته ونشاطه الاقتصادي، وأنه كان لكل منهما طابعه المميز له. ففي حين صاغت التجارة وبجانبها بعض الصناعات طابع مجتمع المدينة، شكلت الزراعة المقوم الأساسي لمجتمع الريف.

ورصدت اليوميات بعض العادات الاجتماعية للمسلمين بمصر مثل عادة ختان الأولاد والاحتفال بالمختون، وكراهة لحم الخنزير، ومعاقبة شارب الخمر.

وأخيرا، يكشف البحث إدراك الأوروبيين لحقيقة ندرة مياه الأمطار في مصر، وأهمية مياه نهر النيل لها، وارتباط رفاهية الحياة في مصر بها، وأن دونها لم يكن بالإمكان للحياة بمصر أن تستمر.

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصادر الأوروبية

Arnold von Harff,

The Pilgrimage of Arnold von Harff. Knight, from Cologne, through Italy, Syria, Egypt, Arabia, Ethiopia, Nubia, Palestine, Turky, France and Spain, which he Accomplished in the Years 1496 to 1499, translated from the German and edited with notes and an introduction by. Malcolm Lettes, F. S. A., London. 1946.

Bernard de Breydenbach,

Les Saintes Pérégrinationes de Bernard de Breydenbach(1483), texte et traduction annotée par le Père F. Larrivaz S. J. Extraits relatifs à l`Egypte suivants l` edition de 1490, Le Caire, 1904.

Domenico Trevisan,

La Relation de l` Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d` Egypte 1512, publié et annoté par Ch. Schefer, Membre de l` Institut, dans. Recueil de Voyages et de Documents pour servir à l`Histoire de la Géographie depuis le XIII^{e} jusque` à la fin du XVI^{e} Siècle, sous la direction de MM. Ch. Schefer, et Henri Cordier, tome. V., Paris, MDCCC XLXXIV.

Felix Fabri,

The Book of the Wanderings of Brother Felix Fabri, in. Palestine Pilgrim`s Text Society, vol. 7 – 10, Reprinted from the Edition of 1887 – 1897, U. S. A., 1971.

Francesco Suriano,

Treatise on the Holy Land, translated from the Italian by. Theophilus Bellorini, and Eugene Hoade with a preface and notes by. Bellarmino Bagatti, Jerusalem, 1949.

Henry de Beauvau,

Relation Iournalière du Voyage du Levant, Nancy, 1615.

Jean Thenaud,

Le Voyage d` Outremer (Egypte, Mont Sinay, Palestine) de Jean Thenaud Gardien du Couvent des Cordeliers d` Angoulème, 1512, publié et annoté par Ch. Schefer, Membre de l` Institut, dans. Recueil de Voyages et de Documents pour servir à l`Histoire de la Géographie depuis le XIII^{e} jusque` à la fin du XVI^{e} Siècle, sous la direction de MM. Ch. Schefer, et Henri Cordier, tome. V., Paris, MDCCC XLXXIV.

Martin Baumgartin, M.,

The Travels of Martin Baumgatin a Noble Man of Germany through Egypt, Arabia, Palestine, and Syria in Three Books, to which is prefixed the Life of the Author, translated, and corrected from the Latin to English by. Joseph Scaliger, in. a Collection of Voyages and Travels, edited by Awnsham and John Churchill, 4 volumes, London, 1704.

Martini à Bavmgarten,

Equitis Germani Nobilisimi Fortisimi: Peregrinatio in Ægyptum, Arabiam, Palæstinam & Syriam, stvdio et opera M. Christophori Donavéri, Ratisponensis, præfixa estequitis vita, eodem auctore, unà cum duplici, rerum, verborum, indice, Noribergæ, MDXCIV.

Meshullam Ben R. Menahem,

The Travel of Rabbie Meshullam Ben R. Menahem of Volterra, in. Jewish Travvellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan Adler, London, 1930.

Michele Amari (ed.),

I Diplomi Arabi del R. Archivio Fiorentino, Testo Originale con la Traduzione Letterale e Illustrazioni di Michele Amari, Firenze, MDCCCLXIII.

Obadiah Jaré da Bertinoro,

The Letters of Obadiah Jaré da Bertinoro, in. Jewish Travellers, edited, with an introduction, by Elkan Nathan Adler, London, 1930.

ثانيا: المصادر العربية

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٢٣هـ/ ١٥٢٣م):

بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى، الجزء الرابع من سنة ٩٠٦هـ إلى سنة ٩٢١هـ، ١٥٠١م إلى ١٥١٥م، الجزء الخامس من سنة ٩٢٢هـ – ٩٢٨هـ (١٥١٦ – ١٥٢٢م)، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.

الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بليو الإفريقي (ت حوالي ٩٥٧ هـ/ ١٥٥٠م):

وصف إفريقيا، ألفه بالإيطالية جان ليون الأفريقي (وهو الحسن بن محمد الوزان الزياتي)، وترجمه من الإيطالية إلى الفرنسية ترجمة جديدة آ. إيبولار، وترجمه من هذه الترجمة الفرنسية إلى العربية الدكتور عبد الرحمن حميدة، وراجعه الدكتور علي عبد الواحد، القاهرة (الهيئة العامة للكتاب) ٢٠٠٥م.

النويري الاسكندراني (محمد بن قاسم بن محمد النويري الاسكندراني المتوفي بعد سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م):

كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، ج١، تحقيق د. إيتيين كومب، د. عزيز سوريال عطية، حيدر آباد الدكن (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية)، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

ثالثا: المراجع الأوروبية

Bacharach, J. L.,

The Dinar versus the Ducat, in. International Journal of Middle East, vol, 4, 1973.

Encyclopaedia Universalis,

Paris, 1990.

John Wansbrough,

A Mamluk Ambassador to Venice in 913 / 1507, in. Bulletin of School of Oriental and African Studies, University of London, vol. XXVI, part. 3, 1963.

Sotas, J.,

Les Messageries Maritimes de Venise aux XIV^{e} & XV^{e} Siècles, Paris, 1938.

رابعا: المراجع العربية

إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور):

١- العالم العربي في نظر الرحالة الأوروبيين: مصنف آل أدورني كمصدر أوروبي عن تونس في النصف الثاني من القرن ١٥م (دراسة مقارنة)، بحث ضمن أبحاث ندوة "أضواء جديدة على مصادر تاريخ"، منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، مجلة حصاد، العدد ٦، القاهرة، ١٩٩٨م. وأعيد نشره في بحوث كتاب بعنوان: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): دراسات في تاريخ العصور الوسطى حضارتها، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٠٦م.

٢- حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١ – ١٥١٧م / ٦٩٠ – ٩٢٣هـ)، ٢ جزء، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية) ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨م، وأعيد طبع الجزء الأول سنة ٢٠١٩.

٣- سيرة أوروبي في البلاط المملوكي: تغري بردي الترجمان ودوره في العلاقات المملوكية الأوروبية ١٤٨١ – ١٥١١م، بحث ألقي بندوة الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم (٥ نوفمبر ٢٠٠٧م – كلية الآداب جامعة الإسكندرية)، ونشر ضمن أبحاث الندوة بمطبوعات مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٨م.

٤- يهود فلسطين في العصر المملوكي في ضوء مؤلفات الرحالة اليهود والمسيحيين الأوروبيين، بحث منشور ضمن أبحاث المؤتمر الدولي بعنوان "فلسطين في ضوء البردي والنقوش"، مركز الدراسات البردية والنقوش، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٠م. وأعيد نشره في بحوث كتاب بعنوان: إبراهيم سعيد فهيم محمود (دكتور): دراسات في تاريخ العصور الوسطى حضارتها، الإسكندرية (دار المعرفة الجامعية)، ٢٠٠٦م.

إتيان كومب:

سكندريات إتيان كومب، الجزء الأول، مقالات طبوغرافية وتاريخية وأثرية عن مدينة الإسكندرية في العصور الوسطى، تصدير أ.د مصطفى الفقي، تحقيق وتعليق د. حسام عبد الباسط، ترجمة أ. د. ندية عارف، مشروع مكتبة الإسكندرية للترجمة، الإصدار (٤)، الإسكندرية، ٢٠٢٠م.

أحمد دراج (دكتور):

المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، القاهرة، ١٩٦١م.

السيد عبد العزيز سالم (دكتور):

١. تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة)، ١٩٨٢.

٢. تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي، لبنان (دار المعارف)، ١٩٦٤م

أوليفيا ريمي كونستابل:

إسكان الغريب في العالم المتوسطي، السكن والتجارة والرحلة في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط، تعريب وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة محمد ياسين الصيد، بنغازي (دار المدار الإسلامي) ٢٠١٣م.

جمال الدين الشيال (دكتور):

تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، الإسكندرية (دار المعارف)، ١٩٦٧م، وأعيد طبعها، القاهرة (دار المعارف)، ٢٠٠٠م.

تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، القاهرة (دار المعارف)، ١٩٦٦م.

ح. هايد:

تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج ٣، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فوده، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٩٩٤م.

درويش النخيلي (دكتور):

السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية، ١٩٧٤م.

سهير محمد إبراهيم نعينع (دكتور):

الحروب الصليبية المتأخرة، حملة بطرس الأول لوسينيان الصليبية على الإسكندرية ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ، القاهرة (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية)، ٢٠١٠م.

صبحي لبيب (دكتور):

الفندق ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية، فصلة في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، اعداد وتقديم د. رؤوف عباس، القاهرة (دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع)، ١٩٨٦م.

فاروق عثمان أباظة (دكتور):

أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، الإسكندرية (مطبعة الانتصار)، ١٩٨٨م.

فاضل عبد اللطيف الخالدي (دكتور):

ابن اياس المصري ومنهجه في البحث التاريخي، بحث ضمن بحوث ندوة ابن اياس التي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة (١٦ . ٢١ ديسمبر ١٩٧٣م، ونشر في كتاب "ابن اياس (دراسات وبحوث) إشراف د. أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٧٧م.

محمد أبو الفرج العش:

مصر . القاهرة، على النقود العربية، بحث ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس . أبريل، ١٩٦٩، ثلاثة أجزاء، القاهرة (مطبعة دار الكتب)، ١٩٧٠ . ١٩٧١م، الجزء الثاني، ١٩٧١م.

نعيم زكي فهمي (دكتور):

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٩٧٣م.

الملخص العربي:

في التاسع من سبتمبر سنة ١٥٠٧م، حطت بميناء الإسكندرية سفينة بندقية حملت على متنها من بين ما حملته نبيلا أوروبيا هو مارتن بومجارتن، كانت مصر محطة له في طريقه إلى بلاد الشام. ولقد ترك لنا هذا المسافر يومياته عن تلك الرحلة التي ضمت صفحاتها مشاهدات شاهد عيان لبلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

ويهدف المقال الذي نتناوله بالعرض في هذا المقام، التعريف بهذا الرحالة الأوروبي، ودافعه من وراء رحلته إلى الشرق، والمحطات التي حل بها في طريقه إلى مصر. واستخدام يومياته لرسم صورة نابضة بالحياة للإسكندرية ومدن دلتا النيل وريفه مطلع القرن السادس عشر الميلادي، من خلال ما سجله بشأنها من معلومات تاريخية، وطبوغرافية، وسياسية، ودفاعية، واقتصادية، واجتماعية، وغيرها. مع مقارنتها لاستكمال تلك الصورة بمثيلاتها من مصادر الزوار الأوروبيين المعاصرين له من اليهود والمسيحيين، من الرُحال والسفراء.

الملخص الإنجليزي:

On the 9^{th} of September 1507 A.D , disembarked at Alexanderia port a venetian galley carries on her deck a European noble, named Martin Baumgarten, Egypt was a stop on his way to Palestine and Syria. This traveler left for us his diaries for this journey, which was an eyewitness view for the east Mediterranean basin.

This article's aim, was presenting this European traveler, his goal from his journey to the East, his stops through the maritime travel till Egypt, using his diaries to draw a vivid painting for live in Alexanderia and lower Egypt cities and countryside in the commencement of 16^{th} century, through the historical, topographic, political, economic, social, defensive information which he wrote. And as well compare them with the writes of contemporary Jewish and Christian European travelers and ambassadors.